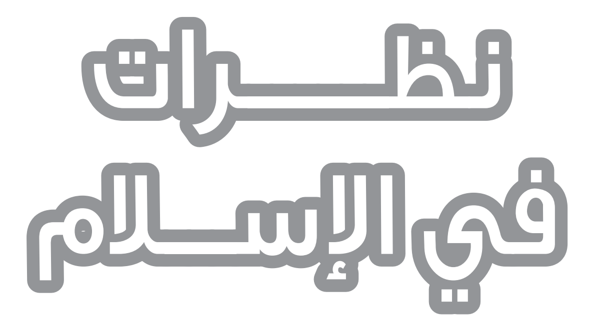


الأزهر الشريف
مجمع البحوث الإسلامية
سلسلة مجمع البحوث الإسلامية
السنة التاسعة والأربعون ١٤٣٩هـ/٢٠١٨م



للأستاذ الدكتور/ محمد عبدالله دراز
عضو هيئة كبار العلماء
ت.١٩٥٨م

إشراف
أ.د / محيي الدين عفيفي أحمد
أمين عام مجمع البحوث الإسلامية

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

دراز، محمد عبد الله
نظرات في الإسلام
الأزهر الشريف - مجمع البحوث الإسلامية
١- العقيدة.
٢- مناهج الناس في السلوك.
٣- القانون الدولي والإسلام.
١٧٦ ص ، ٢٠ سم
العنوان: مجمع البحوث الإسلامية - القاهرة

رقم الإيداع: ٢٠١٧/٢٧٧٦٥م

الترقيم الدولي: 978-977-205-235-8

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تصدير

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعائه واهتدى بهداه .. أما بعد،،،

فلقد كان الأزهر الشريف على مر تاريخه ـ ولا يزال ـ الحارس الأمين على الإسلام؛ عقيدةً وشريعةً وأخلاقًا، يؤدي رسالته، ويتحمل مسئوليته في المحافظة على الدين وتراثه وعلومه الشرعية والعربية وغيرها، حتى صار كعبة العلوم الدينية والعربية والثقافية في مصر والعالم، ومركز إشعاع روحي وديني وثقافي، ينشر مباديء وأخلاق الإسلام، ويوضح المنهج النبوي في مواقف الحياة المتنوعة بعيدًا عن التعصب الأعمى، أو الاضطهاد الفكري أو المادي، مراعيًا لظروف الناس وحاجاتهم، وكتب الله له القبول فتهيأت له النفوس على مدار عقود وقرون طويلة، فأصبح الجامعة الإسلامية الكبرى الفريدة في العالم بتاريخها وأهدافها ورسالتها ومنهجها ووسطيتها.

إن الأزهر الشريف يضطلع بمسئولياته ويواصل مسيرته العلمية في بيان حقائق الإسلام بمنهج وسطي معتدل يحترم التعددية الدينية والمذهبية والفكرية، ويعمل على تصحيح المفاهيم المغلوطة، لأجل حماية العقول من الغلو والتطرف والتسيب.

وانطلاقًا من هذه المسئولية كان الدور العظيم لفضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الأستاذ الدكتور/ أحمد الطيب في النهوض بالتبعات الملقاة على عاتق الأزهر الشريف في الداخل والخارج، ببيان حقائق الإسلام ومواجهة التطرف والإرهاب، وأهمية المجابهة الفكرية وبيان جهود الأزهر الشريف وجميع هيئاته حيث أكدّ فضيلته: أن الأزهر الشريف قد عاش أكثر من ألف عام ـ وسيظل ـ يُدرِّس المذاهب الفقهية، والمسائل الكلامية على افتراقها، والعلوم الإسلامية بمختلف أذواقها ومشاربها، لكن الأزهر قد وجد ضالته ـ منذ القدم ـ في مذهب أهل السنة والجماعة، واتخذه طوق نجاة للمسلمين كلما عضّتهم نوائب التشرذم وآفات التعصب المقيت لمذهب يراه أصحابه: هو الإسلام الذي لا إسلام غيره .. وسبيل الأزهر اليوم هو سبيله بالأمس: السعي الحثيث لجمع كلمة المسلمين، ووقوفهم صفًا واحدًا في مهب العواصف والتيارات.

إن الأزهر الشريف الذي يرفع راية «جمع الكلمة» بين المسلمين، لا يتردد في مقاومة موجات الإلحاد، والتغريب، والإفساد الأخلاقي، ولا يدخر جهدًا في مقاومة الانحراف التكفيري الطارئ، والمرفوض من جماهير الأمة الإسلامية قديمًا وحديثًا، وليس أمامه ـ من أجل تحقيق هذا الهدف ـ إلا مواصلة السعي ـ بصدق ـ لجمع علماء المسلمين على كلمة واحدة، لمواجهة الأخطار التي تهدد الجميع، ولتحقيق مصالح الأمة، ودرء المفاسد عنها، ومن دون هذا الالتقاء،

فإن النتائج لن تكون على النحو الذي نرجوه لأمتنا، وتقتضيه مصلحتها في هذه الظروف التي يمر بها العالم الآن[1].

هذا، وتتعاظم آمال وطموحات الناس حول الأزهر الشريف يومًا بعد يوم، وتتعالى صيحات النداء والفزع إليه ـ بعد الله تعالى – باعتباره الملاذ الآمن للمسلمين في العالم من الانحراف الفكري، والتطرف والإرهاب ، وقد عمل الأزهر الشريف على تلبية هذه النداءات وتحقيق الطموحات، وذلك بكل هيئاته ودواوينه ودوائره العلمية والمعرفية، ومنها: مجمع البحوث الإسلامية، الذي أسهم بجهود عظيمة في العطاء العلمي للأزهر الشريف من خلال دراسة القضايا العلمية المختلفة، إيمانًا منه بدوره العلمي في تصحيح المفاهيم الخاطئة، وبيان وسطية وسماحة الإسلام، وأهمية التيسير ورفع الحرج عن الناس.

إن ما قدمه مجمع البحوث الإسلامية ويقدمه في هذا الصدد ليؤكد جهوده الدؤبة في خدمة الحياة العلمية والعملية للمسلمين؛ في التنظيم، والتشريع، والثقافة، والحضارة، والاجتماع، والسلوك، والأحوال الشخصية، والمعاملات، وما إلى ذلك مما يدخل في صميم الحياة ومتطلباتها.

---

(١) كلمة الإمام الأكبر شيخ الأزهر أ.د/ أحمد محمد الطيب، في افتتاح مؤتمر خطورة الفكر التكفيري والفتوى بدون علم، ١٤٣٥هـ ـ ٢٠١٤م ـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

إن مجمع البحوث الإسلامية وهو يؤدي دوره باعتباره هيئة علمية وبحثية وثقافية ومعرفية بالأزهر الشريف، لا ينفصم عن واقع الناس والمشكلات والتحديات التي تحيط بهم، وظهور أنماط من السلوك وألوان من المعاملات تتطلب ضرورة بيان الرأي والشرعي والديني لها؛ حتى لا ينخدع الناس بالسيئ منها، أو ينساقوا وراء الفكر المنحرف والفتاوى الشاذة التي تعاني منها مجتمعاتنا في ظل انتشار التطرف والإرهاب.

ومن المؤلم غاية الألم أن ترتكب جرائم باسم الإسلام وباسم شريعته السمحاء، وتُنفذ العمليات المدمرة مع صيحات التهليل والتكبير، ودعوى الجهاد والاستشهاد في سبيل الله، الأمر الذي استغله الإعلام الغربي أسوأ استغلال في تشويه صورة الإسلام، وتقديمه للعالم بحسبانه دينًا همجيًا متعطشًا لسفك الدماء وقتل الأبرياء، وأنه يحرض أبنائه وأتباعه على العنف والكراهية والأحقاد، وللأزهر موقف واضح في هذه القضايا قام بإعلانه وبيانه كأشد ما يكون البيان وضوحًا وجلاءً.

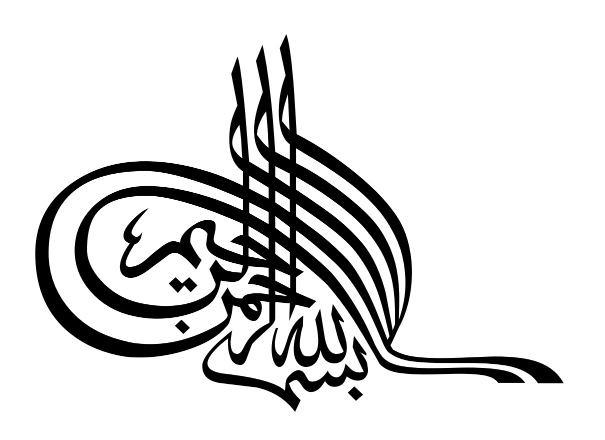
وانطلاقًا من دور المجمع ومسئولياته العلمية؛ فقد قام بإعادة طبع مجموعة من الكتب العلمية النافعة، والتي تتنوع موضوعاتها، وتلبي عددًا من احتياجات المرحلة الراهنة، حيث تشتمل هذه الكتب على قضايا ومسائل تتصل بالعقيدة، والشريعة، والأخلاق، والتفسير، وعلوم السنة النبوية، والثقافة الإسلامية في مجالاتها المختلفة؛ ليكون

الناس على بينة من أمرهم فيما يتعلق بالأمور الدينية والاجتماعية والأخلاقية، خاصة في ظل تراجع منظومة القيم الأخلاقية، وانتشار موجات التطرف والإرهاب والتكفير والإلحاد والتسيب والإنحلال، مما يستلزم معالجة هذه المسائل من خلال الفكر الوسطي الذي يعمل الأزهر الشريف على ترسيخه.

نسأل الله تعالى القبول، وأن يكون العمل خالصًا لوجهه تعالى، إنه نعم المولى ونعم النصير.

الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية

أ.د/ محيي الدين عفيفي أحمد


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

لقد نظرنا في تاريخ الحركات الدينية، وتاريخ الرسالات الإصلاحية، ونظرنا في تاريخ الدول الناشئة وتاريخ الدعوات الجديدة.. فما رأينا كرسالة الإسلام، لا في تمكنها واستقرارها، حيث بلغت من أقطارها، ولا في عمق نفوذها وبعد آثارها.. لقد قام الإسكندر بفتوحاته الخاطفة قبل ميلاد المسيح عليه السلام، فهل كانت تلك الفتوحات إلا نار الهشيم سرعان ما اشتعلت، وسرعان ما انطفأت؟ وهل اقتبست البلاد المفتوحة عقائد الفاتحين وموائدهم ونظمهم وآدابهم، ألم يكن الأمر علي العكس أن اعتنق الفاتحون أنفسهم ديانة البلاد التي فتحوها؟

ولقد جرب الاستعمار الأوروبي الحديث حيله الواسعة وأساليبه الجبارة في بلاد الشرق لكي يغزو عقول أهليها وقلوبهم كما غزا أرضهم وديارهم، فهل ظفر منهم إلا بالقشرة السطحية من صور الحياة؟ ثم هو ذا يجلو عن ديارهم واحدة بعد واحدة في آماد مديدة أو غير مديدة، فيخرج منها كما دخلها أول مرة لم يغير شيئًا من جوهرها، لا في عقائدها ولا في لغتها ولا في أسلوب تفكيرها.

أما رسالة الإِسلام فإِنها حين بسطت جناحيها في أقل من قرن علي نصف المعمورة، كانت كأنما أنشأته خلقا آخر . . لقد بدلته من أوطانه المتفرقة وطنا واحدا، ومن قوانينه المختلفة قانونا واحدا، ومن آلهته المتعددة إلها واحدا . . لقد نفذت إلي جوهر نفسه فحولته تحويلا وبدلت أسلوب تفكيره تبديلا، بل عمدت إلي لغته فأضافت لغة القرآن لسانا إلي جانب لسانه، وكثيراً ما أنسته لسانه الأصيل وجعلت لسان الإِسلام هو لسانه الوحيد، ثم هي لاتزال في كل عصر، تتلقى معاول الهدم من أعدائها فتكسر هذه الصدمات على صخرتها، وهي قائمة تتحدي الدهر، وتنتقل من نصر إلى نصر .

فليحاول الباحثون ماشاءوا أًن يعرفوا مصدر هذه القوة الغلابة، وهذا الانتصار الباهر .

إن هذا النجاح، ليس مرده في نظرنا إلي سبب واحد من الأسباب، ولا إلي فضيلة واحدة من الفضائل . . لقد تضافرت عليه شخصية الداعي، ومنهاج دعوته، وشخصية الأمة التي تلقت تلك الدعوة، وطبيعة الدعوة نفسها، ومن وراء ذلك كله كلاءة الله ورعايته لهذه الرسالة حتي بلغت كمالها أما صاحب الرسالة وما أدراك من صاحب الرسالة، فحسبك منه أنه عليه الصلاة والسلام، جمع خلالا كل واحدة منها كانت عنصراً فعالا في هذا النجاح، خلالا نعد منها ولا نُعَدِّدُهَا، ونرسم شيئاً من جوانبها ولا نحدها :

صبر ومصابرة، وجد ومثابرة، وحرص على بلوغ الغاية، والتزام لأدق حدود الصدق في الوسيلة وفي الغاية، تلطف في الدعوة وقصد في الحجة، وتعليم بالأسوة والقدوة، وتأديب باللمحة والنظرة، وطهر في السيرة والسريرة، لا حقد ولا ضغينة، ولا ختل ولا مواربة، سخاء بما في اليد، وزهد فيما بيد الناس، تضحية بحظوظ نفسه وتنازل عن حقوق شخصه، أما في تبليغ الرسالة وإقامة العدالة، فعزيمة متوفرة لا تني، وصلابة في الحق لا تنثني.

هذه الخلال الفضلى، وأمثالها وأمثال أمثالها تنبع في نفس الرسول الكريم من ينبوع ذي ثلاث شعب: الإيمان، والحب، والأمل.. إيمان بقدسية الرسالة وضرورة حملها، وحب للإنسانية، واهتمام بإنقاذها، وأمل في نجاح الدعوة وبلوغها أقصى غايتها.

نعم إن هذا القلب الذي يمتلئ إيمانًا وحكمة، يفيض في الوقت نفسه حنانًا ورحمة، ويطالع في الأفق دائمًا أملاً باسمًا في النجاح والفلاح.. لا أقول: إنه يفيض رحمة بأتباعه وحسب، فإنه وإن كان لأتباعه من رحمته النصيب الأوفر، فهو- كما وصفه الله رحمة للعالمين، لأعدائه وأوليائه أجمعين، حريص على خيرهم وسعادتهم، مشفق على عنتهم وشقوتهم.

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾
(التوبة: ١٢٨)

ولا أقول: إنه كان يداعب أملاً في نجاح جزئي يخص عشيرته الأقربين، أو يخص أم القرى ومن حولها، ولكنه كان يحمل أملاً في نجاح محيط شامل، بتنظيم البشرية كلها.. ألم تر كيف كان كل انتقاص من محيط هذا النجاح، انتقاصًا من طيب نفسه ونعيمها، وزيادة في أحزانها وآلامها؟ هذا القلب الرحيم كيف يطيب له عيش وهو لا يزال يري طائفة من إخوته في الإنسانية، يعيشون في ظلمة الضلالة والجهالة، أو في حمأة الفساد والرذيلة، أو تحت نير الذل والعبودية لغير الله؟ كيف يطيب له عيش وهو كلما حاول استنقاذهم وتكريمهم وإعزازهم تفلتوا من يديه، وتردوا أمامه في الهاوية متهافتين- على ضعفهم- كما يتهافت الفراش على النار، لا بد إذًا أن يعيد الكرة، وأن يجدد التجربة مرة بعد مرة، عسى أن يتحقق له هذا الأمل المنشود، فتشرق الأرض كلها بنور ربها، وتصبح وقد ملئت برًا وعدلا، وسعادة وكرامة... إيمان قوي، وحب عميق، وحرص على اقتناص الأمل البعيد، ذلك هو سر عزمه المتوقد وجهاده المتجدد الذي كان أول عوامل النجاح.

هـذا العامـل من جانـب صاحب الرسـالة، يسـنده ويؤيده عامـل آخـر من جانب الأمـة التي تلقت تلـك الدعوة، والأرض التـي بزغ فيها نورها.. أرض بكر لم يدنسـها فـي التاريخ كله أقدام الفاتحين، ولم تتحكم فيها يوما ما أيدي الغاصبين، وأمة ألمعيـة الذهن، مرهفة الحس، حفيظة للحمى، أبية للضيم، ما هو إلا أن ذهبت عنها المقاومة الغريزية الأولى لكل غريب، وما هو إلا أن فتحت عينها على كنه النور الجديد، وإذا هو قد ملك عليها شـعورها وتفكيرها، فحملت مشعله بسواعدها القوية، وقلوبها الفتية.. الحمية إذاً هي الحمية، ولكنها تبدلت حمية الحق بحمية الجاهلية.

هكذا تجاوبت نفسية الداعي والمدعو، فالتقت القوتان في حلقة مفرغة، حملت إلي العالمين رسالة الإسلام.

وبعد- فما رسـالة الإسـلام؟ إنها رسـالة تدعو إلى نفسـها بنفسها، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسه نار، رسالة نزيهة القصد مجردة من كل غرض، إنها ليسـت رسـالة العلو والاستعباد ولا رسـالة الطغيان والفساد.. إنها رسـالة النور والإيمان، والعدل والإحسـان، رسـالة الفطـرة السـليمة، والأخـلاق الكريمـة، والسياسة الحكيمة، فلماذا لا تكون رسالة الإنسانية كلها!؟؟

لماذا لا تعتنقها البشرية جمعاء؟!

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾

(القصص: ٥٦)

مع التشريع الإسلامي

لا جدال في أن التشريع الإسلامي، إنما يقوم على أسس سليمة متينة، لا تضعف ولا تتزعزع، فهو تشريع مرن يتطور بتطور الحياة، ويتجاوب مع مصالح الناس وحاجياتهم، دون أن يفرض عليهم عنتًا أو حرجًا.

وهو فوق هذا غني بثروته التى لا تنفد، هذه الثروة التى تلمسها بنفسك في العقائد والأخلاق والقيم الإنسانية، وفي أصول القوانين والدساتير والنظم السياسية والاجتماعية.

هناك عنصران يكونان التشريع الإسلامي:

أولهما عنصر العبادات، وهي التى تتمثل في العبادات بأنواعها: العقلية والروحية والبدنية.

والعقيدة هي الإشعاع الذي يمد هذه العبادات بالضوء، فتدب فيها الحركة والحياة، وتتجاوب مع العقيدة، فتؤدى كاملة غير منقوصة، وتؤدي هي وظيفتها أيضًا كاملة غير منقوصة، في تهذيب النفس والروح والقلب.. والمسلم حين لا يؤدي هذه العبادات المفروضة، ليس معناه ألا عقيدة له؟ إن له عقيدة، ولكنها أشبه ما تكون بالآلة المعطلة، ويوم يقدر لهذه الآلة أن تتحرك ستؤدى واجبها كما ينبغي، في تسليط إشعاعها على العقل والجسد، لتتعاون معًا.

***

والعنصر الثانى، عنصر المعاملات، فالناس في حياتهم مضطـرون إلى التعامل، ولا تقف بنا المعاملات عند حدود البيع والشراء وما إليهما، بل هي شاملة تمتد إلى العلاقات بشتى ألوانها والروابط في مختلف أنواعها.

والتشـريع الإِسـلامي في جميع مراحله وأطـواره، وفي جميع وسائله واتجاهاته، إنما يهدف إلى الإِصلاح الخلقى والنفسـى والفكـرى، والإِصـلاح الاجتماعي والسياسـى والقانونى وليس من شك في أن غاياته إنما تلتقي عند إيجاد مجتمع سـليم نظيف، وشـعب ناهض قوى، وإخاء عالمى يقوم على أساس من الحب والعدل والمساواة والسلام.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَـٰكُمۡ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾

(الحجرات: ١٣)



في العقيدة

إذا تكلمنا بلغة العلوم الرياضية نستطيع أن نضع هذه المتساوية :

إيمـــان + إســـلام = ديـــن . . فالديـــن حقيقـــة مركبـــة من عنصريـــن ، عنصر نظرى هـــو الاعتقاد ، وهـــذا هو الإِيمان ، وعنصر عملي هو ثمرة الاعتقاد . . وذلك هو الإِسلام .

وإذا تكلمنـــا بلســـان الصناعـــات التركيبيـــة ، نقول : إن الدين يمثل بناء شامخًا أساسه الإِيمان . . والطبقات المقامة على هذا الأساس هي الإِسلام .

وإذا تكلمنا بلسان علم الحياة ، نقول إن الدين في جملته يشـــبه شـــجرة مباركة جذورها مســـتقر في أعماق القلوب ، وهذا هو الإِيمان ، ثم تمتـــد فروعها في القلب ، حتى تظهر على اللسان والجوارح . . وهذا هو الإِسلام .

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾

(إبراهيم : ٢٤-٢٥)

فهذا هو الإِسلام والإِيمان ، وهو الدين في جملته .

أما الإِيمان بدون إسلام فهو كنواة جافة لا حياة فيها . . وأما الإِســـلام بدون إيمان فهو كشـــجرة خبيثـــة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار .

ولنبدأ بالبحث عن العنصر الأول، وهو الإيمان، متسائلين: هل الإيمان وظيفة العقل والفكر؟ أم وظيفة القلب والوجدان؟ أم يلزم أن يشترك فيه العقل والقلب معًا؟

الواقع أننا إذا نظرنا في القرآن الكريم نجده يجعل أساس العقيدة عملاً عقليًا لا يتبع العاطفة، ولا المنفعة الفردية ولا الاجتماعية.

هكذا نراه ينعي على الإمعات الذين يبنون عقائدهم على مجاراة العرف أو اتباع الآباء أو طاعة السادة والكبراء.. كما نراه ينعي على الذين يتجرون بعقائدهم ومبادئهم جريا وراء الأرباح والمغانم، وانضمامًا إلى الصف الذي يجر لهم منفعة عاجلة، أو يدفع عنهم مخافة عاجلة:

﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾

(القصص: ٥٧)

﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ (المائدة: ٥٢)

ولكنه يدعونا دائمًا إلى الإيمان عن طريق النظر المستقل، والتفكير الحر في الآيات والأدلة:

﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾

(يونس: ١٠١)

﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾

(الذاريات : ٢٠ ، ٢١)

ثم نراه يصف دعوته إجمالاً بأنها دعوة مستنيرة ، قائمة على نور البصيرة :

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ ﴾

(يوسف : ١٠٨)

بل تــراه يلخص وصايـاه لطالبى الوصول إلــى الحق في وصية واحدة رئيسية :

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ ﴾

(سبأ : ٤٦)

من هذا كله يتبين أن أســاس الإيمــان في نظر القرآن هو المعرفة العقلية ، ولكننا نرى في الوقت نفســه أن القرآن لا يكتفي بهذه المعرفة العقلية حتى ولو بلغت درجة اليقين ، ما لــم يركن لها القلب ، ويطمئن لهــا الوجدان ، ويتجاوب صداها في أعماق الضمير . . فالــذي يعرف الحقيقة معرفة عقليــة ، ولكنه يعدهــا حقيقة تفهة لا طعم لهــا ، أو يجدها حقيقة مرة يمجها ذوقه ويكاد يَشــرَق بها ، مثل هذا كمثل الذي يتصور معنى الجوع والعطش في الوقت الذي لا يشعر فيه بجوع ولا عطش ، أو كالذي يدرك معنى الحب والشوق

وليس محبًا ولا مشتاقًا، أو كالذي يعرف عنك صفة من صفات الفضل ولكنه يحسدك عليها ويتمنى زوالك أو زوالها عنك.. كل هؤلاء في نظر القرآن معرفتهم ليست من الإيمان في قليل ولا كثير.. هكذا يقول في قوم رأوا الآيات مبصرة فقالوا: هذا سحر مبين

﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (النمل: ١٤)

ويقول:

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾

(البقرة: ١٠٩)

الإيمان إذًا معرفة تتغذى بها النفس، وتهضمها وتتمثلها، وتعدها جزءًا من كيانها، معرفة يشعر الفؤاد معها ببرد وثلج.. ولا تجد النفس فيها أثرًا من الضيق أو التبرم:

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾

(النساء: ٦٥)

إنه لابد من الإيمان من عمل العقل والقلب جميعًا .

ولكــن لا يفوتنا أن عنصر العلم والمعرفة العقلية يكون أولاً ، ويكــون ركــون القلب بعــد ذلك على بصيــرة وعلى هدى مــن نور العلم والمعرفة ، وهذا الترتيب تجده صريحًا في كتاب الله عز وجل :

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾

(فاطر : ٢٨)

فجعل العلم بالحق أولاً .

ولقائل أن يقول : إذا كان النظر العقلى هو أساس الإيمان ، فمــا قيمة إيمان العوام ، ألا تحكم عليه بأنه غير ســليم ولا مقبول عند الله ؟ لأنه لا ينبني على نظر واستدلال ؟

ونحــن نعتقــد أنه ليس مــن صواب الــرأي أن نصدر هذا الحكم القاسى بصفة عامة ، ولا بصفة أكثرية ؟ بل بالعكس ، نرجو أن يكون إيمان أكثر العوام مجزيًا ومنجيًا ، لأنه ليس من شــرط صحة النظر والفكر أن يكون في مقدمات مرتبة ، ولا فــي أوضاع منطقية أو لغوية ســليمة ، بل ليس من اللازم أن يترجم في عبارة ، فليس كل من عجز عن التعبير محرومًا من حســن التفكير . . وبحســب المرء أن يصل إلى المعرفة من أقرب باب من أبوابها الموصلة . . وما أكثر هذه الأبواب المفتوحــة أمــام النظــر فــي الأنفــس والآفــاق . . والعقيدة

الإِســلامية عقيدة ســهلة واضحة لا تعقيد فيهــا ، فطرية لا تصنــع فيها ، يســتوى العامــى والمتعلم فــي الوصول إليها بأيسر نظرة وأقرب لفتة.

﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ﴾

(الروم: ٣٠)

وعنصر الدين الآخر هو الإِســلام ، وللإِسلام أنواعٍ العمل التــى تكون عنصره والتى تعد مظهرًا للإِيمان ودليلاً عليه ، وتثبيتًا له في الوقت نفسه.

وللشجرة المباركة التى قلنا إنها تمثل الدين بعنصريه : الإِيمان والإِسلام ، الشــعيرات الرفيعة التى تنبت من النواة في باطن الأرض قبل أن تبرز ساقها إلى سطح الأرض . . أريد أن أقول لك إن الفروع العملية التى تمثل الإِسلام ليست كلها أعمــالاً ظاهــرة يدركها الحس ، بل إن الإِيمــان يثمر أخلاقًا كريمــة قبل أن يثمر أعمالاً مســتقيمة ، فــأول ما ينبت منه فــي النفس فضائل معنوية كالإِخلاص ومحبة الله والرســول ﷺ أشــد مما سواهما ، وإرادة الخير للغير ، والرحمة وغير ذلــك ، ثم تظهر ثمرات هــذه الأخلاق والفضائل النفســية على اللسان والجوارح.

فإِذا ما برزت هذه النبتة إلى الخارج وأخذت مظهرها على اللسان والجوارح ، فإِنها تتفرع إلى ثلاث شعب رئيسية :

الشـعبة الأولى: إعـلان هذه العقيـدة، والاعتراف بها، فإن من امتلأت نفسه بعقيدة اندفع إلى التعبير عنها.. وهذه هي الشهادة.

الشـعبة الثانية: العمل بما تمليه هـذه العقيدة: بامتثـال أوامـر الله، واجتناب محارمه، والتـزام المرء ذلك في سره وعلانيته، في سيرته الشخصية، وفي عبادته، وفي معاملته، وفي فضائله وأحكامه.

الشـعبة الثالثة: نشر هذه العقيدة والدعوة إليها، والأمر بما تعرفه من معروف، والنهي عما تنكره من منكر.

هذه الشـعب الثلاث نجدها مجموعة واضحة في كتاب الله عز وجل:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾

(فصلت: ٣٣)

﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾

نزعة الإلحاد:

إذا كانت العقيدة الإسلامية إلى هذا الحد من السهولة واليسر والانسياق مع الفطرة، فكيف نفسر نزعة الشك والجحود التى أخذت الدعوة إليها تنمو وتزداد عندنا في هذا الوقت؟

ونحــن نعتقد أيضًا أن نزعة الشــك البريئــة لا تكون إلا وليدة الغفلة والذهول . . فالرجل الذي اســتغرقت مشــاغل الحيــاة ومشــاكلها كل همه ، ولا تترك لــه فراغًا من الوقت ولا من البال يرفع فيه رأســه ليفكر في الحقيقة العليا ، هذا لو ســألته عن هذه الحقيقة لكان من شــأنه أن يقول لك : لا أدرى ، لأنه عنها في شــغل ، وهو عنها غافل ذاهل ، والقرآن يعالــج هذه النفوس الغافلــة بدوام قرع الأجــراس لإيقاظها ولفتهــا إلى الآيات المنشــورة فــي كل مــكان ، كيلا يقول الناس بعد ذلك :

﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾

(الأعراف : ١٧٢)

أمــا نزعة الجحود فإنها في الغالب وليدة الغرور : الغرور بنوع من العلم يظن صاحبه أنه أحاط بكل شيء علمًا :

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾

(غافر : ٨٣)

أو الغرور بنوع من القوة ، حتى يقول الأقوياء :

﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ﴾

(فصلت : ١٥)

وهكذا يظن الإنســان الذي أوتي شــيئًا مــن العلم أو من القدرة أنه أصبح مستغنياً عن كل شيء . . وعن الله .

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾

(العلق: ٦-٧)

هذا الغرور بنوعيه يجد لـه مجالاً في عصور الحضارات المادية على أثر اكتشـاف علمى جديد، أو اختراع صناعى مبتكر.

ولكنه لا يجد له مجالاً حتى في هذه العصور نفسها إلا في عقول أدعياء العلم، أو أنصاف المتعلمين، الذين يسارعون إلـى إنكار كل ما لم يكتشـفه العلم بالفعـل، ويزعمون أن كل مـا خرج عن نطـاق هذه العلـوم الجزئيـة لا وجود له، كلمة لا يجرؤ أن يقولها عالم راسـخ، لأنه يعرف أن كل ما كشفته العلوم منذ القدم لا يبلغ قطرة من محيط من حقائق الكون، ويعرف أن هذا التقدم العلمي المتزايد نفسه يشير إلى مـدى غير محدود مـن المجهولات ولا متنـاه.. فكما لا يجـوز أن ينكـر فرع من العلـم أو الصناعة مـا أثبته فرع آخر منها، كذلك هذه العلوم والصناعات جملة لا يجوز أن تنكـر ما لم تحط بعد من أسـرار الكـون الحاضر فضلاً عن بدايتـه ونهايتـه، فضلاً عن أن تنكر الحقيقـة الكبرى التى ليسـت من موضوع هذه العلـوم، ولكنها من موضوع العلم الكلـي الأعلى، حقيقة تسـتند كل الحقائق الجزئية إليها، ولا يمكن عقلاً أن نفسـر هذه الحقائـق الجزئية، إلا بتلك الحقيقة الكلية.

هذا الغرور الإِنسـانى بشـعاع من العلم يظنه كل العلم أو بنسمة من القدرة يظنها كل القدرة، هو الذي يثير في الإِنسان غالبًا نزعة الجحود والإِنكار، ويجعله يكاد يؤله نفسه.

ولـم يقف القرآن مكتوف اليدين، بـل أخذ يتحدى هذا الغـرور بنوعيـة تحديًا يرغـم له أنف كل علـم، وتضمحل أمامـه كل قوة.. فهو يتحدى العلماء جميعًا بمفاتح الغيب التـى لا يعلمها إلا الله: علم السـاعة، وعلـم وقت الغيث، وعلـم مـا فـي الأرحـام، وعلم مـا في غـد، إلى آخـره، ثم يتحـدى الأقوياء جميعًا أن يخلقـوا ذبابًا ولو اجتمعوا له أو أن يسـتنقذوا منه ما سـلبه منهم، ويتحداهم أن يدرءوا عن أنفسهم الموت إن كانوا صادقين، ويتحداهم أن يبدلوا سنة الله فيأتوا بالشـمس من المغرب، أو يجعلوا النهار سـرمدًا إلى يوم القيامة، أو الليل سرمدًا إلى يوم القيامة.

هنـاك عامـل آخر من عوامل الشـك والجحـود معًا، هو عامل خفي غير مباشـر، ولكنه سبب قوى فعال.. ذلك هو سـلطان الهوى على النفوس، وحب إرضـاء الغرائز الدنيا، والرغبة في النزول على حكم الشـهوات، والتحرر من كل القيود والمسئوليات.

هـذه الفوضى الخلقية لا توجد على أوسـع نطاق إلا في جو من الإِلحاد ينكر القوانين السماوية، ويسخر من كلمة الأديـان، ويرفع من القلب شـعور الاسـتحياء مـن الله، لأن

الذي يريد أن يعطى لنفسه هذه الحرية الخلقية المطلقة لا يمكنه أن يتجنب وخز ضميره.. ما دام هذا الضمير يقظًا واعيًا، وما دامت فكرة الرقيب الأعلى تحل مكانة القدسية في هذا الضمير.. فلابد إذًا أن يبدأ بمحاولة تخريب هذا الجهاز المقدس، لإخفاء هذه الصورة المرسومة في لوحة ضميره، ولا يتم له ذلك إلا إذا أغلق النوافذ التى يرى منها نور الله، والتى يسمع منها داعى الله، ثم لا يكفيه هذا لأنه لا يرضى أن يكون كالنعامة تخفي رأسها في التراب، فتظن أن الصائد لا يراها ما دامت هي لا تراه فلابد أن يتقدم خطوة أخرى، لا لإخفاء الصورة على عينيه فحسب بل لينتزعها من نفسه فيأخذ في الاستماع لكلمات التشكيك في وجود الله، ثم كلمات الإنكار لوجود الله، وهكذا يتقلص إيمانه وينزوى شيئًا فشيئًا حتى يكفر لا حبًا في الكفر، ولا اقتناعًا به من أول الأمر، ولكن لإخلاء الطريق أمام غرائزه ومشتهياته.

إنه يفكر ليفجر، ينكر الإله، ليتخذ إلهه هواه..!

هذه هي النزعات الخفية التى يستغلها اليوم أعداؤنا في دعواتهم الهدامة المدمرة، فإنهم لكي يخرجوا فينا جيلا منهارًا، مستعبدًا لشهواته، فاقدًا لشخصيته ولقوميته ولمقدساته، يرسلون في طليعة دعوتهم روادًا من دعاة الإلحاد والكفر، يتسللون في غفلة أو تغافل من الرقباء

ليمهـدوا لهم الطريق . . إلـى القضاء النهائـى على معنوية شبابنا البرىء الطاهر .

ولو أن هذا الشـباب ترك على فطرته الساذجة ، ومنعت عنه دعايات السـوء ، ما استبدل الكفر بالإِيمان ولا الفجور بالطهر والعفة والحياء . . !

* * *

التفانى في العقيدة:

إن الذي بدون عقيدة ، لا يسـاوى شيئًا ، فالعقيدة أساس له ولا يسـتقر بناؤه لحظة بدونه ، والعقيدة القوية هي التى تحمل صاحبها على التفانى فيها . . والتضحية من أجلها .

وآثـار العقيدة في حياة الأفراد والأمم مظاهر يدركها كل ذى عينيـن . . ولكنهـا تختلف ضعفًا وقوة وضيقًا وسـعة ، تبعًا لحال العقيدة ذاتها ومدى سلطانها على النفوس .

فهناك عقيدة ضامرة ذابلة ضئيلة هزيلة ، زاحمتها شئون الحيـاة اليومية ، فألجأتها إلى حاشـية من حواشـى النفس ، وتركتهـا عاطلـة لا عمل لهـا ، هامدة لا حـراك بها ، إلا في فترات قصيرة لا تلبث أن تعود بعدها إلى سباتها العميق . . تلك وا أسـفاه هـي حال العقيدة في نفـوس الكثرة الكاثرة منا أفـرادًا وجماعـات ، أليس أكثر النـاس يؤمنون بواجب التضافر والتآزر وهم أشـتات متفرقـون ؟ ويؤمنون بضرورة الأخـذ بأسـباب القـوة الماديـة والمعنويـة وهـم ضعـاف

متثاقلون؟ ويؤمنون بفريضة البذل والتضحية وهم أشحاء حريصون على الحياة، مثلهم في ذلك كله مثل المريض الذي يعتقد أن لا شفاء له إلا بتجرع مرارة الدواء، ولكنه تخذله عزيمته وتقعد به همته عن تناوله.. فما غناء هذه العقيدة الجافة الميتة التى لا توقظ نائمًا ولا تحرك ساكنًا؟

وهناك عقيدة نصف عاطلة تهيمن على جانب واحد من جوانب السلوك ولا سلطان لها على الجانب الآخر منه.. مثال ذلك أننا نرى فريقًا من الناس يحسنون معاملة الخلق، ولا يحسنون معاملة الخالق، يعجبك من أحدهم أنه لا يخون الأمانة أو لا يشهد الزور، أو لا يجور في الحكم، ولكنك ترى هذا الصنف من الناس مقطوعي الصلة بالله الذي خلقهم ورزقهم، لا يوجهون وجههم إليه، ولا يعتمدون في شئونهم عليه، ولا يذكرونه إلا قليلاً.. وترى فريقًا على العكس من ذلك، تبلغ بهم المحافظة على مراسم العبادات، ونوافل الطاعات، أنهم يتورعون عن نقص تسبيحة منها أو تكبيرة، ولكنهم لا يتورعون أن يحكموا الهوى في أحكامهم، وأن تنطوي على الحقد والحسد قلوبهم، وأن يتهموا الأبرياء بما يعلمون براءتهم منه، وتراهم وقد أذل الحرص والطمع أعناقهم، لا يأبون أن يقفوا مواقف الذلة والصغار، اجتلابًا لعرض من أعراض الدنيا، أو استبقاء لما في أيديهم منه.. هؤلاء وأولئك إن

كانت لهم عقيدة فهي عقيدة مصابة بشــلل نصفي ويوشك أن يسري الشلل إلى نصفها الآخر .

وأخيرًا هناك عقيدة ســوية قوية حية نامية ، يقظة واعية ، مســفرة مشــرقة ، يغمر ضوؤهــا جوانب النفس ، ويســري ماؤهــا في أغــوار القلب ، فهــي للضمير منــاره الذي يهديه ســواء الســبيل ، وهي لــلإرادة قوتهــا النازعــة الوازعة ، عن أمرها يصدر صاحبها في حركاته وســكناته ، ونحو أهدافها يتوجه في أقواله وأعماله ، يتلقى دائمًا وحيها ويســتلهمه ، ويتوخى إرشادها ويترسمه .

فــإذا أصبــح ذلــك دأبــه ودينه صغــرت في عينــه الدنيا وزينتهــا ، وتضاءلــت فــي نفســه نــوازع الهــوى وحاجات الجبلة ، فلا يفكر في مطالب شــخصه إلا لمامًا ، ولا يركن إلى الدعة واللهو إلا اســتجمامًا . . على أنه حين يلم بشــيء من ذلك فإنما يتناوله باســم العقيدة والمبدأ ، وعلى النحو الذي ترسمه له العقيدة والمبدأ ، استعانة على الحق وتقويًا على الجد .

أولئــك حقًا هم أصحاب العقائــد والمبادئ الذين فنيت أشــخاصهم في عقائدهم ، وانمحت أهواؤهم في مبادئهم ، وأصبحوا كأنهم هم عقائد متجســدة ، ومبادئ ماثلة تمشي فــي النــاس . . أولئك هــم الذيــن لا تهمهم أنفســهم لأنهم باعوهــا لله بيعًــا رابحًــا ، أولئك الذين لا تلهيهــم تجارة ولا

بيــع عــن ذكر الله وإقام الصــلاة وإيتاء الــزكاة . . أولئك هم الراشدون ، فضلا من الله ونعمة .

وهــم بعد على مراتب متفاوتة ودرجـات متصاعدة على قــدر التبعــات التــى يحملونها ، وفي مســتوى الآفــاق التى يمتد إليها نشاطهم فليست مهمة الجندي كمهمة القائد ، وليســت فضيلة الرشــاد وحدها كفضيلة الرشاد والإرشاد مجتمعيــن ، وليــس إصــلاح المنــزل والأســرة ، كإصــلاح القبيلــة أو المدينة ، ولا قيادة الأمة والشِــعب كقيادة الأمم والشعوب ، ولا هداية العصر كهداية العصور والأجيال .

كل ذى عقيــدة حيــة فعالة يعرف من تجربته في نفســه أنه قــد ينوء بحمل الواجبات المتنوعــة التى تفرضها عليه عقيدته ، هذا وهو جندى لا يســأل إلا عن نفسه ، فكيف إذا أصبح مسئولاً عن نفســه وعن غيره معًا ، وألقى عليه عبء الهداية والإصلاح فوق عبء الاستقامة والصلاح ؟ ثم كيف تزداد مســئوليته صعوبة وتعقيدًا كلما ترقى ســلم الزعامة والقيــادة ؟ وأخيرًا كيف تبلغ هذه المســئولية حد التعجيز والإحالة إذا انتهي إلى رتبة القيادة العالمية الخالدة ؟

نعــم . . أي بصيرة تلــك التى تنفذ مــن وراء الحجب في هذا الأفق الأعلى ؟ وأي قلب يتســع لهذه المهمات الجلى ! وأي كاهل يقوم بهذه الرســالات العظمى إن لم يكن له من السماء عون كريم وتأييد عزيز ؟

إن الذيـن ضربوا المثل الأعلى في التضحية والتفانى من أجل العقيدة، هم الذين أسسـوا تلك الدعوات الإصلاحية، وفـي مقدمتهـم أولو العزم من الرسـل، الذيـن حملوا تلك الرسـالات السـماوية، ولا سـيما خاتـم النبييـن وجامـع كلمتهـم ومتمـم بنائهـم، محمد بن عبدالله ـــ صلوات الله وسـلامه عليهم أجمعين ـــ فلقد كان كل نبـي منهم يدعو وينادي: يا قوم! يا قوم! يا قوم إنى لكم نذير مبين.. يا قوم إنى لكم ناصح أمين.. حتى جاء محمد ﷺ فجمع الرايات كلها تحت راية واحدة وجعل ينادي: أيها الناس! هذا نذير للبشـر، بل أيها الثقلان.. يا معشـر الجـن والإنس.. هذا ذكر للعالمين.

﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾

(الأنعام: ١٩)

﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾

(المائدة: ٣)

ألا مـن سـره أن ينظـر إلـى أعظـم وأدوم وأعـم رسـالة إصلاحيـة عرفتها أو يمكن أن تعرفها البشـرية، وسـره أن يرى كيف وهبها صاحبها قلبه ولبه، وكيف ملكها ناصيته وجوارحـه وكيف قام وهو في سـن الأربعين أو زهاءها واقفًا

وحـده في صف والعالـم كله في صف.. فمـازال بالأبواب الموصدة حتى فتحت، والقلوب النافرة الجامعة حتى لانت وألفت، ومازال يثابر ويصابر ويكافح وينافح، حتى أمضى رسـالته وأنفذها من ألفها إلى يائها ـ على الرغم من جدتها وغرابتها وسـموها ومثاليتها، وحتى ربى جيلا يحملها من بعده وينقلها على معبرة التاريخ باسم الله، ثم اسمه.

من سـره أن ينظـر إلى هذه الصورة العجيبـة فلينظر إلى نبي الإسـلام وهو يؤسـس دعوة الإسـلام.. دعوة ترد عليه أول الأمـر مـن الأقربين إليه فيلتمس قبولهـا عند الأبعدين عنه من بين مواطنيه ثم تلاقى من هؤلاء الصدود والسخرية فيخـرج من بلده محاولاً نشـرها فيما حول مكة، ثم يكون جوابهـا عنـد هـؤلاء الازدراء والإيـذاء، فيعرضهـا علـى القبائـل الوافدة في المواسـم.. ثلاثة عشـر عامًـا وهو في هذا الشـغل الشـاغل والهم الناصب، ولا يجـد حوله بارقة أمـل في انتشـار دعوته واسـتقرارها، بل يجد مـن قومه في أثناء إقامته بينهم تألبا وتحزبا ومناصبة للعداوة السـافرة، حتى أنهم حاصروه هو وعشـيرته بضع سـنوات في شعب من شـعاب مكـة لا يعاملونهم ولا يكلمونهـم.. فلم يزده العناد منهم والمكابرة إلا مضيا في الإلحاح والمثابرة، ولم تزده العقبات والصدمات إلا استسهالاً للصعاب واستعذابًا للعذاب.. ألم تسـتمع إليه حين رجع مـن الطائف وقد رده

أهلها أسوأ رد، وسلطوا عليه السفهاء يرمونه بالحجارة فجعل يشكو إلى الله ضعف قوته وقلة حيلته، فلم يكن في شكواه حرف واحد ينم على شيء من الوهن واليأس.. بل إنه ختمها بأروع كلمة يعزفها أرباب المثل العليا إذ جعل يقول في مناجاته لربه:

«إن لم تكن ساخطًا عليّ فلا أبالي..»

كل ما يعنيه إذًا في جهاده هو إرضاء ربه وضميره، أما ما وراء ذلك.. أما ما يصيبه في سبيل ذلك فكله أمر يهون ويزدرى.

أليس هذا أصدق تعبير عن حقيقة المثالية والفناء في العقيدة؟

وأروع من ذلك كلمته الأخرى التي تناقلتها السير وسارت بها الأمثال، في إجابته لعمه أبي طالب حين رغب إليه أن يشفق على نفسه، وأن يكف عن مواجهة قريش بهذه الصراحة المؤلمة، فما كان جوابه إلا أن قال:

«والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أنزل عن هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه..».

فيالها من عزيمة مصممة لا تقبل مراودة ولا مساومة، ويا لها من رسالة قدسية أعز وأغلى عند صاحبها من ملك الدنيا وملك الشمس والقمر!!

وهل كانت الهجرة المحمدية إلى المدينة إلا حلقة جديدة من سلسلة هذا العزم المصمم على إنجاح الدعوة بكل وسيلة.. وعلى النجعة في طلب التربة الخصبة لها في أي بقعة يجدها من أرض الله الواسعة؟

هذا النبي المهاجر ـ صلوات الله عليه ـ لم يخرج إذًا إلى المدينة لحماية شخصه، ولكن لحماية رسالته وإرساء دعوته، ولم يكن خروجه هربًا من ميدان الجهاد، ولكن استنادًا إلى قلعة الجهاد، إنه جزء من خطة ثنائية مرسومة في السماء، فالجهاد كر وفر وقد أحسن الفر ليحسن الكر، وكان هذا الفر هو فاتحة العهد الجديد، وأول النصر العزيز، ومن أجل ذلك نيط به تاريخ الإسلام فجعل عام الهجرة منه هو غرة الأعوام.

هكذا نرى العقيدة والمبدأ، هما هدف النشاط النبوي ومحوره، في أول الأمر وآخره، بل هما كل شيء في حياة الرسول ﷺ.. لهما يتحرك ويسكن، ومن أجلها يرضى ويغضب، وفيهما يحب ويبغض، بل فيهما يموت ويحيا:

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾

(الأنعام: ١٦٢-١٦٣)

في الصلاة

الصلاة هي هـذه الرابطة الروحية المثلثـة : بين المصلى وبيـن ربـه ، وبينه وبين إمامه ، وبينه وبين سـائر المؤمنين ـ هـذه الرابطـة الروحية كثيـرًا ما تتمثل في صورة مجسـمه ، فـي جماعـة حاضـرة ، نراهـا رأي العيـن ، ونحسـن فيهـا تزاحـم المناكب ، وتجـاوب الأصوات ، وتناسـق الحركات والسكنات ، حتى إذا غابت هذه الجماعة عن الأبصار ، فإنها لن تغيب عن البصائر ، وإذا تجردت من الأشباح ، فإنها لتبقى ماثلة في القلوب والأرواح ، ومن ثم لا ينبغي للذى يصلى في خلوتـه أن يظن نفسـه منفـردًا منعزلاً في موقفـه . . كلا ، بل ليذكر أن عن يمينه وعن شماله ، ومن أمامه ومن خلفه ألوف الألوف من الصفوف ، في مشـارق الأرض ومغاربها يشـدون أزره ، ويؤيدونه في جوهر مطالبه . . إنهم معه يستقبلون قبلته ذاتهـا ، ويرددون مقالتـه عينها . . إنه ليـس فيهم من يقول : إياك أعبد وإياك أستعين بل كلهم يقول :

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ .

ليس فيهم من يقول : اهدنى ! بل كلهم يقول :

﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾

ليـس فيهـم من يقـول : السـلام عليّ بل كلهـم يقول : «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» .

هكـذا ينبغي لـكل مصل أن يعد نفسه عضـوًا في وفد الرحمـن، لا يناجـى ربه بلسـانه وحده، بل بلسـان إخوانه المؤمنيـن، الحاضريـن منهـم والغائبيـن.. ألا إن الوحدة التى يرمى هذا التشـريع إلى تحقيقها، لأوسع مجالاً وأبعد مـدى، من أن تقف عند حدود الجيل الحاضر، أنها تريد أن تنتظم في سـياج واحد كل أهل القبلة من الأجيال الماضية والحاضرة والمستقبلة.

بـل نقول إنها أوسـع رقعة من أن تقـف عند عصر النبوة المحمديـة، وإنها تتجاوز ذلك العصـر إلى عصور النبوات الأولـى، ذلك أن الشـريعة المحمدية لم تنشـئ هذه القبلة إنشـاء، وإنما جـاءت مصدقة ومقررة للقبلة التى أسسـتها النبـوات السـابقة، وهـذا مـن أوضـح الأدلة على سـماحة الإسلام وسعة أفقه، وشدة حرصه على جمع كلمة النبيين، وتوحيد رابطـة المؤمنين بالأديان السـماوية كلها.. ولقد حقق الإسـلام هـذه الوحدة علـى مرحلتيـن متصاعدتين: ففـي المرحلة الأولى انضم إلى صـف إخوانه من أنبياء بني إسـرائيل، وفي المرحلة الثانية والأخيـرة صعد إلى الأصل الأصيـل.. إلـى الكعبـة التى هـي أول بيت وضـع للناس، منضمًـا بذلك إلـى صف أبي الأنبياء، الـذي يؤمن كل أهل الأديان به وبقبلته، وإن لم يستقبلوها في صلاتهم.

***

ولقـد كان للقبلـة التـى وحـدت صفوف المسـلمين، وربطت بين مشـاعرهم، كان لها قصـة وآية قصة، فقد ظل بيت المقدس قبلتهم، وحال الزمن ثم صارت الكعبة البيت الحرام إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وأثار هذا التحول لدى خفـاف الأحلام شـيئًا مـن الريب والشـكوك، ولكن القرآن الكريم تولى نقض هذه الشـكوك ودحضها، مجليًا فلسفة التشريع وحكمته.

ترى ما سر هذا الاهتمام البليغ بتعيين القبلة وتوحيدها؟ ومـا سـر هذا التطـور في تشـريعها؟ لمـاذا لم يكـن نظام الصلـوات كنظـام الدعـوات المنشـورة التى لا يشـترط في صحتهـا ولا في قبولهـا، أن يتخذ الداعـى وضعًا خاصًا من الأوضـاع، ولا أن يلتزم أسـلوبًا معينا من الأقوال والأفعال، ولا أن يتجـه إلـى جهة معينة مـن الجهات؟ ولمـاذا كانت الجهة هـذا البيت أو ذاك؟ ولماذا جعلـت عامة للأمة كلها أفـرادًا وجماعات؟ أليسـت الصلاة صلة بيـن العبد وربه؟ أليسـت كل وظيفتها تحقيق هذه العبودية للرب، والتماس المعونـة منه؟ أو ليس الله يسـمع لمن حمده على أي وضع كان، ويستجيب لمن يدعوه حيثما توجه؟

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ﴾

(البقرة: ١١٥)

هذه أسـئلة تجول بالخواطر، ولكنها لا تلبث بعد قليل مـن التأمل أن ينجلي وجه الحكمة فيها.. أجل إن قليلاً من التأمـل يهدينا إلى أن الله جلت حكمته، حين شـرع الصلاة على هذا الوجه الموحد في أسـلوبه وصورته، وحين نصب لنـا فيهـا إماما نبيًـا نقتدى بـه أو بمن ينوب عنـه، وحين أقـام لنا بيتًا نتوجه فيـه إليه بوجوهنا، ونحـج إليه بقلوبنا أو بأبدانـنـا، أراد بذلـك أن تكون الصـلاة عبادة جامعة بين علامتي الإيمان: المحبة لله، والمحبة في الله، أراد ألا تكون الصـلاة صلة واحـدة، بل مجموعة من الصـلات: صلة بين العبد وربه؟ وصلة بينه وبين أئمته من المرسـلين، أو ممن يحمل رسالتهم، وصلة بينه وبين إخوانه المؤمنين.

لقـد كبر هذا التحويـل على كثير من الناس، وحسـبوه لهـوًا وعبثًـا، أو حيرة وتـرددًا، وما هو بعبـث ولا بتردد، وإنما هو التصميم الأول نفســه، يسير صاعدًا نحو الهدف الأخير.

ولقد سـماه علماء الظاهر نسـخًا وما هو بنسـخ إلا في الصورة والرسـم.. أما في جوهره فهو التـدرج والترقى في توحيد كلمة الأديان.. أرأيت الولد البارّ حين يسـير قاصدًا إلى بيت أبيه.. فإذا مر في طريقه على بيت إخوته فإنه يأبى إلا أن يعـرج عليهم ليقيم بينهم فترة ما، تطييبًا لخاطرهم، ثم يكون مستقره في البيت المشترك، الذي يحمل الأسرة كلها.. فذلك التطور الذي حدث في تشريع القبلة.

فبيت المقدس هو بيت الإخوة، والكعبة هي بيت الأسرة وهي منزل الجد الأعلى.. وإذا كان من مفاخر الإسلام أنه جمع بين القبلتين فإنه لم يكن همه ذات القبلة في الأولى ولا في الثانية.. وإنما كان همه أول الأمر وآخره، هذا الانضمام والالتئام بين أسرة المؤمنين، وفي وحدة القصد، والتوجه إلى المعبود الأعلى تحت لواء النبيين والمرسلين.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ﴾

(الأنبياء: ٩٢)

﴿قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾

(البقرة: ١٤٢)

* * *

في الزكاة

الزكاة هي ثالث أركان الإسلام الخمسة، وإذا كانت الشهادتان بمثابة غرس للعقيدة، وتثبيت لأصولها في أعماق القلب.

وإذا كانت الصلاة بمثابة رباط متين بين الإنسان وخالقه، وترويض للنفس على النظام والطاعة، وللقلب على الخشوع في غير مذلة، وتهذيب للخلق وصهره في بواتق الديمقراطية الخالصة.

فإن الزكاة لبمثابة الضريبة الإنسانية، يدفعها المقتدر إلى مستحقيها، ليحيى بها نفوسًا، ويشبع بها بطونًا، ويمسح بها دموعًا، ويزيل بها آلامًا.

والزكاة غير الصدقة، فالصدقة يدفعها المسلم متطوعًا، وهو حر حين يدفعها، كبيرة كانت أم صغيرة، لا يتقيد بقيود، ولا يخضع لشروط، فهي تنبع من الإحساسات والمشاعر والعواطف وتدفع كلما أحس المسلم نحو المحتاج بمزيج من العاطفة والشفقة، وللصدقة مثوبتها عند الله، وأجرها يبدأ من عشرة أضعافها إلى سبعمائة ضعف.. إلى ما شاء الله ويكيف هذا الأجر ظروف الصدقة ودوافعها وأهدافها.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾

(البقرة: ٢٦١)

أما الزكاة، فهي أشبه ما تكون بالضريبة الإنسانية، يدفعها من يملكون نصابها إلى بيت مال المسلمين، ليتولى صرفها في أوجهها، وقد روعي في أوجه الصرف هذه أن تمت معظمها إلى الإنسانية بصلة، فالإسلام دين إنساني قبل كل شيء:

﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

(التوبة: ٦٠).

وإذا كان المسلم حرًا إزاء الصدقة، له أن يبذلها متى يشاء وأينما أراد، فليس له هذه الحرية إزاء الزكاة، لأنها فرض عين مقدس، ما دام في الدولة حكومة إسلامية قائمة تنظم سياستها المالية: ولقد فكر بعض المنافقين في أوائل عهد الخليفة الأول، أبي بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ فكر هذا البعض في التمرد على الزكاة وامتنع عن دفعها، فلم يتوان الخليفة لحظة في قتالهم رغم معارضة عمر ـ رضى الله عنه ـ ولقد قال الصديق وقتذاك:

«والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه إلى رسـول الله ﷺ لأقاتلنهم عليه» !

وكيـف يتواني خليفة المسـلمين في مقاتلـة المرتدين الذيـن يريدونها فتنة بتمردهم على الزكاة، لا يعلم خطرها إلا الله وحده؟

وإذا لـم يوجد فـي الدولة بيت مال للمسـلمين، فليس معنـى هذا أن يصير المسـلم فـي حل من دفع مـا عليه من الـزكاة، بـل يجب أن يصـرف ما عليه في تلـك المصارف الثمانيـة التي حددها القرآن أو في بعضها، والله سـائله عن ذلك ومحاسـبه عليه حسـابًا دقيقًا، وهذا هو الرسول ﷺ يقـول كما روى أبـو ذر عنه، قال: «انتهيت إلى رسـول الله ﷺ، قال: «والذي نفسي بيده»، أو «والذي لا إله غيره» أو كما حلف «ما من رجل تكون له إبل أو بقرة أو غنم لا يؤدي حقها إلا أتى بها يوم القيامة أعظم ما تكون وأسـمنه، تطؤه بأخفافهـا وتنطحه بقرونها، كلما جازت أخراها رُدَّت عليه أولاها، حتى يُقضى بين الناس» (رواه مسلم).

إن فريضـة الـزكاة بمثابة رابطـة بين الإنسـان وربه من ناحيـة، وبينـه وبيـن المجتمـع مـن ناحية أخـرى، وكأن الإسـلام بفرضهـا أراد أن يلفـت نظر المسـلم إلى ضرورة شـكر الله على ما أسـدى إليه من نعم، حتـى يؤدي الزكاة، وإلى أنه عضو في مجتمع يجب أن يكون متعاونًا متساندًا،

كالجسد الواحد إذا اشتكى عضو منه، تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمي.

إن الشرائع بأسرها، سماوية كانت أم وضعية، لم تتضمن تشريعًا كتشريع الزكاة الذي تضمنته شريعة الإسلام، هذا التشريع الإنساني الذي يفرض على المسلم الغني ضريبة مقدسة، يفيد منها المجتمع الذي يعيش فيه، وتفيد منه الدولة التى ينتسب إليها.

الإسلام يدعو المسلمين جميعاً إلى الوحدة، ويعتبر أن جميعهم تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد واحدة على من سواهم، وهذا هو التضامن الجماعي:

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾

(الأنبياء: ٩٢).

والإسلام فرض الزكاة، لتكون بمثابة ضريبة إنسانية مقدسة، يبذلها الغني، ويفيد منها المجتمع والدولة، حتى لا يعيش مسلم معدمًا محرومًا، ولا يبقى غنى أنانيًا جشعًا، وهذا هو الضمان الاجتماعي:

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾

(التوبة: ١٠٣).

﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾

(المعارج: ٢٤-٢٥).

زكاة الفطر

إن زكاة الفطر لتضمن جانبًا إنسانيًا، له أهميته في نظر الإسلام، وأثره في حياة الأمة الإسلامية، إنه نظام الصدقات والزكوات الذي كتبه الإسلام في نهاية رمضان، ليكون مخباراً لإيمان الصائم، ومقياساً لمدى تأثر نفسه بالصيام، فالصوم يهدف إلى تنمية الإحساسات والعواطف في النفس، حتى تحس بآلام غيرها..

وإنه لتشريع فذ في بابه، لا أقول إنه منفرد وحيد بين التشريعات العالمية فحسب، بل أقول إنه لا نظير له في التشريعات الإسلامية نفسها، ذلك أن الزكاة في العادة إنما تفرض على الأغنياء في فضول أموالهم، أما زكاة الفطر فإنها عند جمهور الأئمة واجبة على الأغنياء والفقراء على السواء، يواسي بها الغني الفقير، ويواسي بها الفقير من هو أفقر منه، فكما كانت ضريبة الصبر والزهد في رمضان فرضًا على الجميع، أصبحت ضريبة البذل والسخاء تنتظم الجميع:

﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ﴾

(الطلاق: ٧)

هكذا كما يتساوى المسلمون في الجوع والعطش،

يجب أن يتساووا في الشبع والري.

إنـي أدعوكم إلـى التفكير مليًا في سـر هذا التشـريع، لتعلموا أنه تشريع مثالي، يخلق المجتمع المثالي، انظروا إلى هـذه التربية العمليـة على الوحدة والمسـاواة مرتين، تتنـازل الأمـة كلها جملة واحـدة، لتذوق مـع المحرومين طعـم العوز والحرمان، ثـم تصعد الأمة كلهـا آخذاً بعضها بأيدي بعض، لترتفع فوق مستوى العوز والحرمان، تتذوق مع المتذوقين طعم الارتقاء الذي يليق بالإنسان.

وهـذه هـي تعالـم الإسـلام في نصهـا وروحهـا، وإنها لتجربة لها ما بعدها.

لقد رسـم الإسـلام لنا طريـق العزة والكرامـة، فهل من وسـيلة إلى تمهيد هذا الطريق وتنظيمـه؟ وهل لجماعات البر في الإسلام، ولسائر منظماته وحكوماته أن تبذل جهدًا في تحقيق هذه المثل العليا؟



في الصيام

الصوم في الإسلام لا يكفي فيه هذا المظهر السلبي المادي، الذي يقوم على اجتناب المفطرات لأي باعث كان، ولأي هدف اتفق.. وإنما هو قبل كل شيء عمل روحي إيجابي، يتحرى فيه العامل الهدف الذي حددته له الشريعة، ويجعل نيته فيه، وفقًا لإرادة ربه منه.. فاعرف إذًا ماذا أراد ربك من صومك، واعمل على أن تكون نيتك وفقًا لإرادته، وليكن أول ما نذكره من ذلك، أن الله الرحيم لا تعنيه من صومك حرارته ومرارته، ولا يناله من جسمك ذبوله وهزاله.. وإنه إذا كانت هنالك أديان ونحل ترى في ألم الجسم مقصدًا يطلب، وترى في الارتقاء بالطيبات عدوًا يحارب، فليس الإسلام من بين هذه الأديان، كيف وهو الذي يقول:

﴿لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾

(المائدة: ٨٧)

ويقول:

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾

(البقرة: ١٨٥)

إنه لو كانت غاية الصوم هي إشعار الصائم بالجوع والعطش، لكان الرجل العادى يكفيه صوم جل اليوم بل

صومـه كله، ولكان الرجـل الفاقد لشـهية الطعام، يجب عليـه أن يضيف مدة أخرى يشـعر فيها بألـم المخمصة، ولكننـا نعلـم، أن الذي يزيد فـي مدة الصـوم ولا يتحلل مـن حرماته ولو بالنية عند غروب الشـمس، آثم وأن مثله فـي الإِثـم كمثل الذي ينقص مـن مدة الصـوم فيفطر قبل الغـروب.. ونعلم من جهة أخرى أن الذي يراعى شـرائط الصوم وحدوده، وهو على صومه معان، وله ميسر- مبرور مأجور- كالذي يكابد فيه شيئًا من تغير المزاج.

ليـس هدف الصوم إذا هو هذا الألـم البدني.. وإن كان هذا الألم قد يقع في طريقه.. إن الله عز وجل حين قال لنا:

﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ (البقرة: ١٨٣)

لم يقل: لعلكم تتألمون.. كما أنه لم يقل: لعلكم تصحون.. أو لعلكم تقتصدون.. وإنما قال:

﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة: ١٨٣)

فجعل الصوم اختبارًا روحيًـا وتجربة خلقية، وأراد منه أن يكـون وسـيلتك إلى نيل صفـة المتقيـن، وأداتك في اكتساب ملكة التقوى.

التقـوى.. هذا هو الهـدف الحقيقي، الـذي إن أصبته جاءت من ورائه كل الثمـرات مكرهة راغمة، وإن أخطأته فقد أضعت عملك كله سدى:

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾

(الشورى: ٢٠)

إنك لن تحيط بكنه التقوى، ولن تقدرها حق قدرها، إلا إذا عرفت طبقات الكائنات ومراتب الوجود.. فاعلم أن الوجود ثلاث مراتب:

١ مرتبة السيادة العظمى، وهذه قد استأثر بها الواحد الأحد، الفرد الصمد.

١ ومرتبة العبودية الدنيا، وهذه هي مرتبة الكائنات العاجزة المسخرة لقانون الطبيعة، والتى ليس لها من الحرية نصيب، كالجماد والحيوان.. وإن الإنسان ليهبط إلى هذه المنزلة إذا وقع أسيرًا في قبضة شهواته.

١ المرتبة الثالثة: تجتمع فيها السيادة على الكون. والعبودية لخالق هذا الكون، وتلك هي المنزلة التى يصعد إليها الإنسان، إذا وقف يتلقى أوامره العليا من ربه، ثم جعل يلقي هذه الأوامر على جنوده من القلب والجوارح.

فإذا أسلمت له تلك الجنود مقاليدها، فصار قائدًا مطاعًا في جنده، سيدًا مهيبًا في مملكته الصغيرة، فقد نال صفة التقوى وأصبح جديرًا بالاستخلاف في الأرض والتمكين له فيها.. وأكرم بعبودية هي عين السيادة.

تلك هي التقوى، التى أراد الله أن تكون ثمرة صيامك..
وهي في الحقيقة هدف مشترك بين العبادات والطاعات جميعًا.. غير أن للصوم في تحصيلها أثرًا أوسع وأعم.. والمنزلة التى يبلغها الصائم بين مراتب المتقين هي أعلى المراتب وأسماها.

إن منزلة الصيام، هي أسمى مراتب التقوى، وأكرمها عند الله، فلأن في سائر العبادات جوانب، تحببها إلى النفوس الكريمة، وتقربها من مقتضى الطباع السليمة، ففي الصلاة مثلا، حلاوة المناجاة، وفي الزكاة أريحية الجود والكرم، وفي الجهاد عزة الحمية وإباء الضيم، أما الصيام، فإنه ليس فيه معاونة من الطبع، بل على العكس معاندته ومقاومته، فكان أقرب الأعمال إلى الخلوص من الشوائب، ولعله من أجل ذلك كانت الأعمال كلها يثاب عليها بأضعاف معلومة.. من العشرة إلى السبعمائة، إلا الصوم فإن تضعيف جزائه لا يدخل تحت حصر ولا عد، كما جاء في الحديث القدسي:

(كل عمل ابن آدم له، إلا الصوم فإنه لي، وأنا أجزي به).

ومصداقه في الكتاب العزيز:

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾

(الزمر: ١٠).

هـذا الفضل العظيم إنما هو كما قلنا، لمن فقه حكمة الصـوم وصحح فيه نيته، وذلك إنما يكـون بجعله نهاية الطهـر لا بدايتـه.. فبدايـة الطهـر، طهـر الأبـرار بترك المحارم، ونهاية الطهـر، طهر الأخيار، بالتحرر من عادة التـرف والعيـش الناعم، حتى إذا جاء الغـد، وجد الجد، ودعـا الداعـى إلى التضحيـة العظمى.. نكـون قد أخذنا للأمر عدته، حيث مارسنا الصبر وشدته.. ويومئذ نرضى بالظمـأ، والنصب، والمخمصـة، ولا نرضى أبدًا أن نعود إلـى التـرف والنعيم تحت الـذل وفي قبضـة الغاصب.. وتلك هي عبرة الساعة من درس الصيام.

المعانى الإيجابية في الصوم

إن مـا فـي الصوم من كبـت وحرمان، ليـس هدفه هذا الكبت والحرمان، وإنما الصوم وسـيلة إلى غاية نبيلة.. إنه التدريب على السـيادة والقيـادة، قيادة النفس وضبط زمامهـا، وكفهـا عن أهوائهـا ونزواتها، بل إنه التسـامي بتلك القيادة على أعلى مراتبها.

إنـك بالصوم تملـك زمامي شـهوتك وغضبك.. وإنه لصبـر يجـر إلى صبر، ونصر يقود إلـى نصر.. فلئن كان الصـوم قد علمـك أن تصبر اليوم طائعًا مختـارًا في وقت الأمـن والرخاء، لأنت غدًا أقدر علـى الصبر والمصابرة، في البأسـاء والضـراء وحين البأس، ولئـن كان الصوم قد

علمك كيف تنتصر اليوم على نفسك، لقد أصبحت به أجدر أن تنتصر غدًا على عدوك.. وتلك عاقبة التقوى، التى أراد الله أن يرشحك لها بالصيام.

إن هذا الهدف الذي صورناه وحددناه إنما يقوم في منتصف الطريق الذي رسمه الله للصائمين.. وإن في نهاية هذا الطريق، هدفًا آخر، بل أهدافًا أخرى أهم وأعظم.. وفي الحق أنه لو كان كل ما يطلب من الصائم هو أن يكف نفسه عن شهواتها وانفعالاتها، ولم يكن أمامه عمل إيجابى جديد يسد به هذا الفراغ، إذًا لكانت تجربة الصوم، انتقاصًا للطاقة العاملة من ناحية، دون إمداد لها من ناحية أخرى.. وإذًا لكانت على حد تعبير العلماء «تخلية» بلا تحلية «أو تجارة مأمونة الخسارة» ولكنها لا ربح فيها ولا غنيمة.

فهل شريعة الصوم في الإسلام هي تلك الصورة العارية الجرداء؟ كلا إنها عبادة ذات شطرين، وليس شطرها الأول إلا تمهيدًا وإعدادًا لشطرها الثاني.. إنها شجرة جذعها الصبر، ولكن الله لا يريد للصائم أن يترك هذا الجذع قاحلاً، بل يريد أن ينبت على جوانبه أغصانًا من الشكر، وأن يتوهج هامته بأوراق وثمار من الذكر والفكر.. وإن من تأمل كلمة التقوى، التى عبر بها القرآن الكريم في حكمة الصيام، يجدها منطوية على هذين الشطرين:

فهي في شطرها الأول كف وانتهاء، وابتعاد واجتناب، لكنها في شطرها الثاني إقبال واقتراب، وإنشاء وبناء.

وإذًا فليس الشأن كل الشأن، في أن يغلق الصائم منافذ حسه، ويسكت صوت الهوى في نفسه، فذلك إنما يمثل إغلاق أبواب النيران، ولكن الشأن الأعظم في أن يكون إغلاق منافذ الحس فتحًا لمسالك الروح، وأن يكون إسكات صوت الهوى تمكينًا لكلمة الحق والهدى فتلك هي مفاتيح أبواب الجنان.. ومن كان في شك من أن هذا الجانب الإيجابي، هو الهدف الأخير لشريعة الصوم، فليقرأ كتاب الله، وسنة رسوله صلوات الله عليه.

والعجب في هذا التوجيه.. أن الإسلام لم يتركه دعوة مرسلة، بل وضع له مناهج معينة، ورسم له خططًا مفصلة، ذلك أنه لما جعل شهر الصوم موسمًا لانطلاق الروح من عقالها، فتح فيه للأرواح بابين تتدفق منهما: بابًا إنسانيًا، وبابًا ربانيًا.. فأما انطلاق الروح في رمضان من الباب الإنساني، فذلك أنه أرشدنا إلى أن يكون زهدنا في الطعام والشراب ليس قبضًا وإمساكًا بالحفظ والإدخار، بل بسطًا وسخاء بالبذل والإيثار.. وهذا هو الصوم كما فهمه إمامنا الأعظم صلوات الله عليه فقد كان أجود ما يكون في رمضان، حتى أنه كان فيه أجود من الريح المرسلة.. وما زكاة الفطر في آخر رمضان، إلا الحلقة

الختامية، والمظهر العلني الجماعي لهذه الحركات النفسية الفردية، التي تحولت فيها فضيلة الصبر إلى فضيلة الشكر؛ اتباعًا لإرشاد القرآن الكريم حين يقول:

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

وأما انطلاق الروح في رمضان من الباب الرباني، فذلك أن الإسلام فتح فيه للطاعة مسالك مسلوكة، ورسم لها سبلاً ذللا:

تسبيحٌ وتحميدٌ، تكبيرٌ وتمجيدٌ:

﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾

(البقرة: ١٨٥).

تضرعٌ وابتهالٌ، ودعاءٌ وسؤالٌ:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾

(البقرة: ١٨٦).

«من قام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه»[١].

وما الاعتكاف في العشر الأواخر من رمضان، إلا نهاية الشوط في هذا السير، إقبالاً على الله وانقطاعًا بالكلية إليه:

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأبو داود.

﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ﴾

(البقرة: ١٨٧).

ألا وإن ذروة الأمر وسنامه في هذا الجانب الرباني، إنما هو في مناجاة الله بكلامه، وفي مدارسة كتابه، كما كان يفعل الرسول المصطفي من البشر، والرسول المصطفي من الملائكة، إذ كانا يتدارسان القرآن في رمضان في كل عام، ولأمر ما نوه الله بهذه الصلة الوثيقة بين رمضان وبين القرآن، وجعلها أول المناقب والمزايا التى اختص بها هذا الشهر المعظم.. فقال جلت حكمته:

﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ﴾

(البقرة: ١٨٥).

فكان ذلك إيماءً لنا بأن نجعل لرمضان من القرآن أوفر الحظوظ.

وإذا كان من شأن الأمم الحية التى تعني بتاريخها وأمجادها أن تبتهج وتحتفل بذكرى مولد دستورها، فلم يكن بدعًا من الأمر أن يجعل الإسلام شعار رمضان هو الاحتفال بمولد دستوره السماوي، الذي ختم الله به الشرائع وأتم به مكارم الأخلاق.

* * *

المظهر الجماعي في صوم رمضان

إن هـذا الضـرب مـن الصوم يمتـاز عن سـائر أنواع الصيـام في الإِسـلام، بأنه لا يخص فـردًا دون فرد، ولا فئة دون فئة، كشـأن النوافل والكفارات، وأنه لم يترك لأحـد الخيرة في تحديد بدايتـه ونهايته، ولا في جمعه وتفريقه متى شـاء وبقدر ما شـاء، ولكنـه جعل ضريبة الوفـاء علـى الأمة جمعاء، في موسـم معين مـن العام، وفي مقدار معين من الأيام، وفي وقت واحد، وفي نسق واحد.

هـذا الطابع الاقتراني الشـامل، يكفي وحده للدليل علـى أن هـذه الفريضة السـامية لا يراد منهـا أن تكون مجرد رياضة روحية تصل بين العبد وربه فحسـب، ولا مجرد تجربة إنسـانية من التعاطف والتراحم في حالات فرديـة متفرقـة، ولكنه يـراد منها أن تكـون في الوقت نفسه حلقة اتصال بين الأمة كلها، وأن تكون رباطًا من الرحمة بين المؤمنين تصهرهم جميعًا في قالب واحد، وفي جسد واحد.

علـى أن فريضـة الصوم ليسـت فـي هذا بدعًـا بين فرائض الإِسـلام الكبرى، وشـعائره العملية العظمى.. فكلهـا ـ لـو تأملنا ـ تتمثل فيها هـذه الطبيعة الثنائية: الروحيـة الجماعيـة.. حتـى أن الشـعائر ذات الطابـع

الروحـي البارزة، كالصلاة والحج، قد أمدتها الشـريعة بعناصـر، وأحاطتها بمظاهر، وقيدتها بشـرائط تجعل جانبهـا الاجتماعـي لا يقـل شـرفًا وخطرًا عـن جانبها الروحي.

ونحـن حيـن ننظر إلـى فريضـة الصيام، نـرى فيها مظهـرًا مـن مظاهـر هـذا التماسـك، وهـذه الأخـوة، والمسـاواة الإسـلامية، إنهم يصومون معًـا، ويفطرون معًا، دون امتياز لأحد.

هذه كما ترى قواعد الإسلام ودعائمه الكبرى: جعل الله كل واحدة منها قطبًا ذا طرفين: طرف يربط المؤمن بربـه، وطرف يربطـه بإخوانه المؤمنيـن، ثم جعل كل واحدة منها ينبوعًا لمحبتين، لا يكمل الإيمان إلا بهما مجتمعتيـن: المحبة لله، والمحبة في الله.

هكذا أراد الله أن يجعل من عبادتنا شعارًا لوحدتنا.. بل أراد أن يتحول هذا الشـعار شـعورًا، وأن يصبح هذا الشـعور نارًا ونـورًا: نارًا تفـرى قلوب الأعـداء، ونورًا يسـري إلى قلوب الأولياء: تواصلاً وتراحمًا وتسـاندًا وتعاونًـا.. معان تتفتح أبوابها فـي كل عبادة جماعية، وهـي في عبادة الصوم المشـترك أجلـى وأظهر، وذلك أن تجربة الصوم المشـترك زمالة في الجهاد، ورفقة في مكافحة الشـدائد، أرأيت الرفيقيـن في الجهاد إذا كان

أحدهما ذا فضل وسعة في زاده وعتاده، هل تطاوعه نفسه أن يمسك فضله عن زميله المتخلف عنه في الزاد أو العتاد؟

كذلك تنصهر القلوب المؤمنة كلها في بوتقة الصيام، فتعود قلبًا واحدًا في جسد واحد.. وهذا هو المثل الأعلى في وحدة الأمة التي يؤهلنا لها صوم رمضان.



في الحج

إن الكتلة العظيمة المعترضة في صلب الخريطة من الغرب إلى الشرق، تعتبر وسطًا في موقعها بين الشمال والجنوب، وسطًا في جوها غالبًا بين البرد القارس والحر اللافح..!

في هذه الرقعة الوسط، وفي هذا الجو الوسط، تستوطن الشعوب الإسلامية التى جعلها الله أمة وسطًا: وسطًا في عقيدتها متجافية عن طرفي الخرافة والجحود، وسطًا في شريعتها، نائية عن طرفي الواقعية الجامدة القلب، والمثالية الذاهلة العقل، وسطًا في مطامحها، بعيدة عن طرفي القناعة الذليلة، والحرص الجشع، وسطًا في موقعها بين المعسكرات المتنافرة المتناحرة، وسيط سلام بينهما، وداعية أمن وطمأنينة للإنسانية كلها.

هذه الأمة كما جعل الله لها من وضعها الجغرافي وحدة طبيعية جامعة، جعل لها من عقيدتها وشريعتها وحدة روحية جامعة.. وحدتان لو أثمرت كل منهما ثمرتها في مجالها لكان من شأنهما تحقيق السعادة الكاملة للمجتمع الإسلامي: كان من شأن الوحدة الجغرافية أن تمحو من بين أقطار الإسلام تلك الحواجز الإقليمية في شئون الاقتصاد والإنتاج، وأن تيسر توزيع ثروتها المادية بينها توزيعًا ينشر فيها الرفد والرخاء، ويحقق لها الاكتفاء الذاتى

والاستغناء عما سواها.. وكان من شأن الوحدة الروحية أن تتغلب على تلك الفوارق السطحية بين شعوب الإسلام في ألسنتها وألوانها، وفي مذاهبها وعاداتها، وأن توحد أو تجانس بين مناهجها التثقيفية ومبادئها التشريعية، وأن توجه رؤوسها المفكرة إلى تبادل نتاجها العلمى والأدبي، ورؤوسها المدبرة إلى تنسيق خططها السياسية والاجتماعية، وأن توجه جيوشها إلى التكتل في الدفاع عن كل شبر من أرضها، فكلما اشتكى من جسم الإسلام عضو تداعت له سائر الأعضاء بالحماية والرعاية.

نعم.. لقد كان من شأن هذه الوحدة المزدوجة أن تجعل الأمم الإسلامية من أرغد الأمم عيشًا، وأعظمها قوة، وأتمها عزة.. فياليت شعري ما الذي قعد بها عن بلوغ هذه الغاية العليا بعد أن وضعت المقادير في يدها مفاتيحها المادية، وبعد أن وضع الإسلام في يدها مفاتيحها الروحية؟

لقد كان من الممكن أن يكون المجال فسيحًا في الجواب عن هذا السؤال، وفي التماس العذر للمسلمين عن هذا القعود، لو كان الإسلام قد اكتفي بتقرير هذه الحقائق والمبادئ، إذ كان لهم أن يعتذروا بأنها حقائق نظرية لا يدركها إلا الأفذاذ، الذين تتسع آفاقهم حتى يستوعبوا خريطة العالم الإسلامي في نظرة، ويستوعبوا عقيدة الإسلام وشريعته في فكرة.. ثم كان لهم أن يعتذروا بأن

إقامة هذه الوحدة عبء جسيم، لا يسعى إلى حمله طائعًا مختارًا من بين هؤلاء الأفذاذ إلا عبقرى، يؤمن في قرارة نفسه بأن له رسالة إصلاحية في هذا العالم.. أما الجماهير والدهماء فإنهم لا يمتد نظر أحدهم إلى أبعد من قطره أو إقليمه، بل ربما لا يتجاوز خياله حدود قريته، أو نطاق حرفته.

فالرجل الذي لم ير في حياته هنديًا ولا صينيًا، ولم يعرف روسيًا ولا تركيًا، ولم يعامل صوماليًا ولا سنغاليًا، كيف نطالبه بأن يفكر في كل هؤلاء وأمثالهم، وأن يهتم بشئونهم وشئون أقوامهم؟

لا لقد أبطل الإسلام هذه الحجة، وأغلق الباب أمام هذا الاعتذار، إذ لم يكتف بتقرير هذه الحقائق النظرية، ولكنه وضع إلى جانبها نظامًا دقيقًا إلزاميًا، وهيأ لتحقيقها فرصة عملية سنوية يجمع بها العالم الإسلامي مركزًا في بقعة.

أتدرى ما هذه البقعة؟ إنها المحور الذي تلتف حوله أقطار الإسلام على بعد متناسب من كل جانب، إنها القطب المغناطيسي الروحي الذي تنجذب إليه أفئدة المؤمنين من كل فج عميق، إنها الكعبة: البيت الحرام، ومكة: البلد الحرام، ومنى: معسكر الحرم، وعرفة: عتبة باب الحرم.. ذلكم هو مهد الإسلام في طفولته، ومبعث نشاطه في فتوته، جعل الله الورود إلى هذا المنهل الأول فريضة حتمًا على

كل مسـلم يستطيع إليه سبيلاً، ولو مرة في حياته.. فليس لأحـد منهـم إذًا أن ينطوي على نفسـه في قطـره وإقليمه، وأن يقـول: «إنى لم أرى في حياتى مشـرقيًا ولا مغربيًا» أنه يجب عليـه دينًا أن يرحل ليرى ويسـمع وليندمج في هذه الكتلة الإسلامية الكبري، بل إننا لو فرضنا أن كل فرد أدى هذه الرحلة المفروضة، فإنه لا يباح لجماعة المسـلمين أن يقطعوا هذه الشـعيرة الموسـمية، ولا مناص من أن تتجمع الوفـود الإسـلامية هناك، فـي كل عام في وقـت واحد، في صعيـد واحد، بل في زي واحد وأن ينشـدوا جميعًا نشـيدًا روحيًا واحـدًا، تردده معهم الجبـال والأكمات، فتتجاوب أصداؤه في قلوبهم، وتنصهر فيه نفوسهم حتى تعود سبيكة واحدة في بوتقة الشعور المشترك، والوجدان الموحد.

تلك هـي تجربـة الوحدة الروحيـة، تكملهـا وتتوجها تجربـة الوحـدة الاجتماعيـة، ذلك أن الإسـلام لـم يجعل الحج عبادة وحسـب ولكنـه جعله في الوقت نفسـه قيامًا للناس، وموسـمًا لتبادل مصالحهم، وفي مختلف وجوهها وأنواعهـا، بل إنـه لأمر ما، جعل هذه قبـل تلك في معرض بيانه للغاية المنشـودة من رحلة الحج.. ألا نسمع إلى قول الله جلت حكمته:

﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾

(الحج: ٢٨)

إنه تطبيقًا لهذا المبدأ الحكيم كان من واجبات الحج بعد أداء مراسمه، أن يخلع الناس ثياب عبادتهم المتقشفة، وأن يمكثوا هناك فترة يعودون فيها إلى مجرى حياتهم العادية، متكشفًا كل منهم عن زيه ومهنته ولهجته، ليتعاملوا ويتشاوروا ويتعاونوا، وهم في أوضاعهم الطبيعية، حتى تبرز بينهم صورة هذه الوحدة الإسلامية المختلفة المظهر، المؤتلفة الجوهر.

هل فقه الناس إذًا مغزي هذه الشريعة؟ وهل أدركوا أن تكرار هذه التجربة كل عام في شكل مصغر، إنما هو دعوة إلى تجربة أمثالها كل آن في نطاق أوسع، وعلى مقياس مكبر.

إن عامة المسلمين يفهمون من شعائر الحج أنها مادية روحية أعدها الله لعباده عند أول بيت وضعه للناس، ليتزودوا فيها من أنواع القربات، ويتعرضوا فيها لفيض الرحمات، فكل واحد منهم حين يؤديها إنما يعنيه شأن نفسه وتزكيتها، وشأن واجباته وتأديتها.

غير أن الإسلام أوسع أفقًا، وأبعد نظرًا من أن تحدده هذه الأهداف الفردية الضيقة، وإلا فلماذا لم يترك لنا الخيرة في أن نؤدي هذه الشعائر فرادى أو مجتمعين في أي وقت من العام يشاؤه الواحد منا؟ ولماذا أمرنا لزامًا أن نؤديها مجتمعين في صعيد واحد، في وقت واحد، في زي واحد؟

لابد هناك من سـر أو أسرار يهدف إليها التشريع الإسلامي من وراء هذا التجمع والتكتل.

أتـدرون ما الأواصـر التى ربـط الله بها الأمة الإسـلامية لتكون كالجسد الواحد؟ كلنا يعرف منها آصرتين اثنتين: وحدة العقيدة، ووحدة الشريعة: إله واحد وكتاب واحد.. آصرتـان عقليتان معنويتان، ولكـن الله أراد أن يضم إليهما آصرة ثالثة حسـية ملموسـة، فبعث منادياً ينادي في الناس أن يجتمع ها هنا وفود المسـلمين من أقطار الأرض كل عام ليعبدوا هذا الإله الواحد، بتلك الشريعة الواحدة على أرض واحـدة هي أرض الوطن الروحي.. وهكذا تجسـدت وحدة العقيـدة ووحدة الشـريعة فـي وحدة الوطـن الأعلى، ذلك ليذكـر المسـلمون أنهم ـ وإن تفرقـت أقطارهم واختلفت أنسابهم وألسـنتهم وألوانهم ـ تجمعهم جامعة الدين والله والوطـن.. وإنـه إذا جد الجـد وجب أن يضحـى كل فريق منهم بمصالحه الخاصة في سبيل هذه المصلحة المشتركة العليا.

إن نظرةً إلى خريطة العالم الإسلامي ترينا كيف أنه يمتد فـي قلب العالم كتلة واحدة متصلة، من أقصى الشـرق إلى أقصـى الغرب، وأنه كله يدور علـى محور واحد.. هو مكة المكرمـة.. التى هي قلب الوطن الإسـلامي وقطب رحاه.. إن هـذا الوضع الجغرافي المتماسـك القوى، قد اختص به

الإسلام بين سائر الأديان.. ومع ذلك من أعجب العجب أن الذي ينظر إلى الماضى القريب للأمة الإسلامية، لا يجدها في المكانة التى يؤهلها لها هذا الموقع الفريد.. ذلك أن تفتتها الإقليمى وانطواء كل شعب منها على نفسه، قد أنساها هذه الرابطة العظمى.

ولقد كان المسلمون الأولون لا يعرفون هذه الحواجز الحديدية.. فكان التجار والرحالون يتنقلون من قطر إلى قطر، وليس بيدهم جواز سفر.. إلا كلمة الإسلام.

❊ ❊ ❊

الجوانب الاجتماعية في الحج:

هناك ظاهرة عجيبة من ظواهر التشريع الإسلامي، تلك هي الطبيعة الثنائية، المادية الروحية، الإنسانية الربانية، الفردية الاجتماعية، التى تسري باطراد، في شعائر الإسلام، حتى أن كل قاعدة من قواعدها الأربع، تمثل قطبًا ذا طرفين: طرف يربط المؤمن بربه، وطرف يربطه بإخوانه المؤمنين.. ظاهرة مطردة، كلما ازددنا في دراستها إمعانا زادتنا إيمانا، بأن الذي فصل هذه الشريعة على مقياس الإنسان، هو الذي فطر الإنسان روحًا في مادة، وفردًا في جماعة.

هذه الطبيعة الثنائية، قد تكون جلية واضحة في بعض الشعائر، دقيقة عميقة في البعض الآخر، ولكنها في شعيرة الحج، أوضح وأجلى منها في سائر المواطن.

ولا نريد أن نطيل في وصف الجانب الروحي، من هذه المأدبة الكبرى، التى أعدها الله للمؤمنين، عند أول بيت وضعه للناس، فذلك الجانب الروحي منها، هو مثار الانبعاثة الأولى، في قلب كل مؤمن يريد أن يلبى هذه الدعوة، إنه حين يتفرغ لها من مشاكله وشواغله ويفارق من أجلها أهله ووطنه، مضحيًا بماله ووقته وراحته، متجردًا حتى من ثيابه وزينته، محتملاً في هذه السبيل كل وصب ونصب، إنه يرى في ذلك كله مرضاة لربه، ومطهرة لذنبه، وبرهانًا على الإيمان، وزادًا من التقوى.

إن شعيرة الحج ـ فريضة كانت أو نافلة ـ قد حدد الإسلام لها أشهرًا معلومات، وعين لمناسكها أيامًا معدودات، بل جعل لبعضها ساعات محدودة من تلك الأيام المعدودة، بحيث لو فاتت فلا قضاء لهذا، بل قد يجب العود لها من عام قابل.. هكذا يجب أن يجتمع الناس على هذه المناسك، في وقت واحد، وفي صعيد واحد، بل في زي واحد، ثم يجب أن تتكرر هذه الشعيرة في كل موسم، وأن تشهد أرض الحرم وما حولها هذه الوفود الإسلامية، مجتمعة في ميقاتها من كل عام.

هذا العنصر الجمعي، هو إذًا ركن ركين، وعنصر أساسي أصيل، من دونه لا يكون الحج حجًا، ولا يقع فرضًا ولا نفلاً وبعد حرص الإسلام على هذا التجمع في الحج، حرصًا

يفـوق كل حرص، وجعلـه هو الحلقة الختاميـة العليا توج بها سلســلة التجمعات المحلية، التى دعا المسلمين إليها في مختلف المناسـبات.. دعا أهـل الحلة أو الحي الصغير إلى التجمع في أقرب المســاجد خمــس مرات كل يوم، ثم دعــا أهل القرية أو الحي الكبير من المدينة إلى التجمع في مســجدهم الجامع، مرة في كل جمعة، ثم دعا أهل المدينة وضواحيها إلى التجمع في فضائها أو في أوســع مكان منها كل عام مرتين، لصلاة العيدين.. مراحل متصاعدة.. تنمو فيها روح الجماعة شـيئًا فشـيئًا، ويتضخـم مظهرها رويدًا رويــدًا، حتى تصل إلى هذا التجمع الإسـلامي الكبير، مرة في كل عام، حول أول بيت وضع للناس.

لقد كان مقدرًا للإســلام أن ينتشــر نوره في الآفاق، على مختلــف الأقطــار والأقاليم.. ولقــد رأيناه بالفعل، يبســط جناحيــه على الأرض يمينًا وشــمالاً حتى أتــى على نهايتها في أقصى الشــرق وفي أقصى الغرب، ثــم رأيناه في الاتجاه الرأســي يمد قطبيه ما شــاء الله أن يمدهما في الشمال وفي الجنوب.. ولإن كان قد توقف ســيره بعض الشيء، في هذا الامتداد الرأســي، لقد كان ذلك العارض وقتيًا، إذا وضعت أمامه عقبات وحواجز صناعية لو رفعت من طريقه، لأصبح ينتظم المعمورة من جميع أقطارها، ذلك أن الإسلام، فكرة سائغة، وشريعة عادلة، ونظام جميل مثله كمثل الماء العذب

المنهمــر، لا يصادف أرضًا مطمئنة إلا غمرها وعمرها، أيًا كان جوهــا وأيًــا كانت تربتهــا.. وهكذا انفتحــت لدعوة الإسلام عقول الأمم وقلوبها، على تنائى أقطارها واختلاف ألســنتها وألوانها، ونظمها وعوائدها وموروثاتها.. فلو أن الإســلام رخص لكل أمة قبلت دعوته في أن تبقى حيث هي محصــورة في نطاق حدودها، لا تدرى مــا يجري وراء تلك الحدود من نظم وآراء، أو أنها تســمع بها ولا تراها فتصدق ما يصل إليها من أخبارها إن صدقًا وإن كذبًا، لو أن الإسلام رخــص بذلــك، إذًا لأفســح الطريق أمــام العقائــد والعوائد المحلية القديمة وسائر المقومات الاجتماعية الخاصة بكل قطر، ولتركها تربــو وتنمو، وتتبلور وتتجمد، حتى تكون عقيدة إلى جانب العقيدة، بل عقيدة في قلب العقيدة، وإذًا لأصبحت الوحدة الإسلامية، وحدة اسمية نظرية، ولعادت شعوب الإسلام، جماعات متنافرة متناثرة، لا قدر الله.

كان مــن الضرورى إذًا لبقاء هذه الوحدة ودوامها بصورة عمليــة، أن يفــرض علــى الشــعوب الإســلامية، نظــام من الاختلاط والامتزاج والتجاور والتزاور، من شأنه أن يحد من حدة التفاوت بينها، وأن يميل بمقوماتها الاجتماعية، إلى التماثل والتشــابه، أو على الأقل، إلى التقارب والتناســق، إذ يكــون هذا الاختلاط فرصة ممهدة لاقتباس ما هو حســن جميــل، وتهذيب ما هو شــاذ متطرف، ويكــون في الوقت

نفســه تدريبًا عمليًا على التســامح والإغضــاء عن الفوارق الشكلية التى لا يخشى أن تحدث صدعًا في كيان الجماعة العظمى.

ماذا عسى أن يكون هذا النظام؟

أنفرض على كل قطر، أن يوفد طائفة منه تجوب الأقطار كلها بين حين وآخر، للوقوف على سبر عقائدها وعوائدها وعلومها وآدابها وأسلوب عباداتها ومعاملاتها، وللسهر الدائب على التنسيق بينها وصيانتها من أن يكون الاختلاف فيها اختلاف تناكر وتنافر؟.. يا لها من ضريبة قاسية ومهمة شاقة عسيرة.. أليس من الخير واليسر، أن تجيء الوفود كلها إلى بلد واحد؟ أوليس من خير الخير، وأيسر اليسر أن يكون هذا البلد في سرة الأرض، على بعد متناسب من كل أقطارها.. وأن يكون هذا البلد، هو البلد الآمن الذي يلجأ إليه المكروبون ويأمن فيه الخائفون، وأن يكون هذا البلد، هو البلد المحروم من ثمرات الأرض، الأحق بالبر والرفد، وهو البلد الذي للإسلام فيه رحم تتقاضانا برها وصلتها منذ أقدم العصور، منذ قال إبراهيم عليه السلام:

﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾

(إبراهيم: ٣٧)

أو ليس من تمام الحكمة، أن يكون هذا البلد، هو المكان الذي نزل فيه القرآن، والذي يتخاطب فيه الناس بلغة القرآن، ليكون فيه لغير العرب، إلف ما، بلغة العرب، التى ينبغي أن تكون من عناصر العالمية الإسلامية؟ وأخيرًا أليس الخير كله في أن يكون هذا البلد، هو البلد الذي فيه قبلة المسلمين ومشاعر عبادتهم.. مطافهم ومسعاهم، وموقفهم ومرماهم، هكذا اختار الله للمسلمين أن يكون مجتمعهم السنوى، في مكان يوفون فيه حق دينهم ودنياهم معًا، كما قال جلت حكمته:

﴿يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾

(الحج: ٢٨)

﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ ما أعجب هذه الكلمة.. ما أوجزها وما أجمعها.. إنها لتتناول شئون الاقتصاد والسياسة، والحرب والقانون والعرف، واللغة، والآداب، والعلوم، وسائر مقومات الحياة الجماعية التى تتأثر أعظم التأثر، بهذا الاتصال والتلاقي، كما تتأثر السوائل بتلاقيها في الأواني المستطرقة فتأخذ في التوازن والتعادل طلبًا للوصول إلى مستوى واحد.

ولكن هل يظل المسلمون في مواسم حجهم قانعين بهذا الموقف السلبي، الذي لا يعمل فيه إلا العقل الباطن

البطــيء الفاتــر ؟ أليس يجــب أن يتقدموا خطــوة إيجابية ، توضــع فيهــا الخطــط المفصلــة لهــذه الوحدة الإِســلامية الشــاملة ؟ نعم : لقد آن للأمم الإِسلامية أن تخرج من سجن هذه الفرديات المنعزلة ، والقوميات المنفصلة ، إلى محيط الجماعة الكبرى ، التى يرون منها ، نموذجًا مصغرًا في هذه الرحلة المقدسة .



في حياتنا الاجتماعية

المجتمع هو الأساس الأول الذي يقوم عليه بناء الدولة، وحين يكون متينًا قويًا، سيظل بناء الدولة إلى الأبد ثابتًا شامخًا لا تزلزله العواصف، ولا تصيبه القلاقل بالتصدع والانهيار، والأفراد هم اللبنات لهذا الأساس، فمتى كانت هذه اللبنات سليمة، ظل المجتمع إلى الأبد أيضًا متينًا قويًا.

فالعناية بالفرد أولاً، لأنه لبنة في بناء المجتمع، ثم العناية ثانيًا بالمجتمع في مجموعة أفراده، وبذلك تتيسر للشعب الدولة الناهضة النابضة بالحركة وبالحياة.

وللناس في ظل المجتمع مناهج في سلوكهم، وسبل في حياتهم تختلف هذه المناهج وتلك السبل باختلاف الأفراد، تبعًا لاستعدادهم النفسي والخلقي والثقافي، وهي إما تتخبط في الحضيض، وإما تتهادى في القمة، وإما أن تسير وسطًا، ليست في الحضيض، وليست في القمة أيضًا.

والأخلاق هي المقياس، والمضطلعون بتقويم المجتمع، إذا حاولوا أن ينتقلوا بمنهج الحضيض، وبالمنهج الوسط أيضًا إلى القمة، يجب أن يبدأوا بالأخلاق أولاً، لأنها أول الخيط الذي يصل بهم إلى الغاية.

على أن المجتمع في حاجة قبل ذلك، إلى وعي جماعي لا يمالئ ولا يحابى ولا يجبن ولا يتقهقر، يتعقب المتمردين على المجتمع، ويضيق عليهم السبل حتى يعودوا إلى رشدهم،

ويثوبوا إلى صوابهم، وللإسلام فلسفة في إصلاح المجتمع وتقويمه، فهو يسلك في هذا الصدد مسلكا ذا اتجاهين، الاتجاه الإيجابي، والاتجاه السلبي، فهو يقيم الاتجاه الأول على قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، في إطار فردي وجماعي، والتدخل للإصلاح بين المتنازعين:

﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾

(لقمان: ١٧)

﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾

(آل عمران: ١١٠)

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ﴾

(الحجرات: ٩)

ويقيم الاتجاه الآخر السلبي، على قاعدة المقاطعة، وفي القرآن مثل واضح للثلاثة الذين تخلفوا عن الغزو في غزوة تبوك، وكان أن أمر رسول الله ﷺ المسلمين بمقاطعتهم، ونفذت المقاطعة الشاملة إلى أن تاب الله عليهم.

لو أن المجتمع قامت فيه هاتان القاعدتان اللتان يرتكز عليها الإصلاح الإيجابي، والإصلاح السلبي، لأمكنه أن يعيش عيشة يسودها الأمن.. وتغمرها الرفاهية والسلام.

مناهج الناس في السلوك

الناس على اختلاف مشاربهم ومنازعهم أصناف ثلاثة، لا زائد عليها:

١- هذا صنف من الناس، لا يفعل الخير ولكنه يحب أن يحمد به، ويقترف الإثم ثم يرمي به من هو بريء منه، إذا كان عليه الحق ضجر به وإذا كان له الحق ألح في طلبه، ولم يقبل في ذلك معذرة، ولا نظرة إلى ميسرة، أولئك قوم قد أهمتهم أنفسهم وعموا وصموا عن حق من حولهم، إذا نالهم أذى جاوزوا الحق في عقوبته، فكافأوا السر بالعلانية، والنصيحة بالتشنيع والفضيحة.

هذا الصنف من الناس، إن لم يكن هو أكثر الناس ففي أكثر الناس نزعة من نزعته، لا أقول إنها نزعة الأثرة فحسب: بل نزعة البغي والجشع، تلك خلة قوم وصفهم الله بأنهم أحرص الناس على حياة، أي حياة كانت، ولو حياة الذلة والمهانة، أو حياة الوحشية والتخلي عن كل عاطفة إنسانية.

هذا الصنف من الناس شعاره في الحياة: كن كلاعب الشطرنج، خذ ولا تعط، فإن لم تستطع فخذ أكثر مما تعطى.

٢- وصنف ثان من الناس، قليل ما هم، لا يضنون بالحق الذي عليهم، بل يسارعون إلى أدائه، ولكنهم يحرصون

في الوقت نفسه على الحق الذي لهم، ولا يتهاونون في اقتضائه، لا يبدأون أحدًا بظلم ولا عدوان، ولكنهم إن ظلموا انتصفوا ممن ظلمهم، وحرموا من حرمهم، لا ينامون على ثأر، ولا يكفون عن المطالبة بحق، فإذا أدى إليهم لم يجاوزوه مثقال ذرة، وإذا شفوا صدورهم واقتضوا لحرماتهم، لم يبالغوا في العقوبة، ولم يسرفوا في التشفي.

وهؤلاء شعارهم في الحياة: خذ بقدر ما تعطى:



(البقرة: ٢٧٩)

﴿وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾

(البقرة: ١٩٤)

٣- وصنف ثالث، هم أقل القليل، يتجاوزون العدل إلى الفضل، لا يظلمون أحدًا، بل يعفون عمن ظلمهم، ولا يبخسون أحدًا حقه، بل يسمحون له ببعض حقوقهم، فإذا كان لهم دين على معسر لم يكتفوا بإنظاره إلى الميسرة، بل تجاوزوا له عنه تجاوزًا كريمًا، وأعطوه إياه عطاء غير ممنون.

وهؤلاء شعارهم في الحياة: أعط ولا تأخذ، فإن لم تستطع فأعط من نفسك أكثر مما تأخذ.

تلك أصناف الناس، وتلك منازعهم ومبادئهم التى يصدرون عنها في الحياة.

منــازع ثلاثــة، لو كان لنا أن نرمز لــكل واحد منها برمز حســابى، لوضعنا علــى أولها علامة النقــص، وعلى الثانى علامة المساواة، وعلى الثالث علامة الزيادة.

ما قيمة هذه المناهج والمبادئ في نظر الإسلام؟

لنضــرب الذكر صفحًا عــن الخطة الخاســرة، والتجارة البائــرة: خطــة النقص والبخــس، إنها ليســت ممقوتة في الإســلام وحــده، ولكنها مذمومــة بكل لســان، في حكمة الحكماء، وفي شرعة السماء في التوراة والإنجيل والفرقان.

ولننظــر فيما بيــن المبدأيــن الأخيريــن: مبــدأ العدالة الحازمة، ومبدأ العفو والإحسان.

وقبل أن نعرض نظرة القرآن الحكيم إلى هذين المبدأين، نحــب أن نعرف علــى وجه الإجمال مكانتهمــا في الكتب السماوية السابقة:

إن هذين المبدأين قد اقتســمتهما شــريعتان من شــرائع الســماء، أخذت كل واحدة منهما بطرف: فشريعة التوراة في زعمهم هي شريعة العدل الذي لا هوادة فيه، والقصاص الذي لا عفو معه، وشــريعة الإنجيل في نظرهم هي شــريعة الإحسان الذي لا يعرف مشاحنة ولا محاسبة، والعفو الذي لا تنقصه عقوبة ولا مخاصمة.

هكذا وضعوا بين دســتور الأخلاق في هاتين الشريعتين حواجز حديديــة، تجعلهما لا يتصافحان ولا يلتقيان، فهل حق هذا الخصام؟

لنقــرأ الكتاب الــذي أنزله الله مصدقًا لمــا بين يديه من الكتب، حارسًــا لما فيها من حقائق، حفيظًا عليها أن تغير أو تبدل.

لنقرأ القرآن الكريم، لنعرف مدى ما في هذه الأقوال من تحر للصدق أو نقص عنه أو تزيد فيه، فماذا نجد؟

نجــده يحدثنا عن الشــريعة الموســوية بأنهــا حقًا كان فيها بعض الإصر والمشقة، وأنها أخذت أتباعها بشيء من الحزم والشــدة، وأنها شرعت لهم قانون القصاص بأدق ما فيه من معنى المساواة، بين الجناية وعقوبتها، ولكننا نجد إلــى جانب ذلك نصًا صريحًا من التوراة المقدســة، يرغب المجنــى عليــه في التنــازل عن حقــه، والعفــو للجانى عن جنايته، هذا حين كتب الله على بني إســرائيل في التوراة أن النفس بالنفس، وأن الجروح قصاص، قال لهم بعد ذلك:

﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾

(المائدة: ٤٥)

وكذلك يحدثنا عن الشريعة العيسوية، بأن الله أودع في قلوب أتباعها رأفة ورحمة ولكنها لم تخل مع ذلك من دعوة إلى الجهاد، وإلى التكتل في نصرة الحق:

﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾

(الصف: ١٤)

ولما سجل القرآن بيعة الإيمان:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ ﴾

(التوبة: ١١١)

عقب على ذلك بقوله:

﴿ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ ﴾

(التوبة: ١١١)

لم يكن بين الشريعتين إذًا هذا الانفصال الكلي الذي صوروه لنا في دستور الحياة ولكننا مع ذلك لا ننكر أن طابع الحزم والشدة كان على الموسوية أغلب، وأن طابع الرفق والعفو كان في المسيحية أظهر وأبرز، وأن الطابع الآخر كان مغمورًا مكنوزًا بالطرف المقابل له.

والآن ما موقف القرآن من هذين المبدأين؟

لقد نظرنا مليًا إلى مناهج الناس ومشاربهم في سلوكهم، فوجدناهم يصدرون في معاملاتهم عن إحدى نزعات ثلاث: إما نزعة الاستئثار، وإما نزعة الإيثار، وإما نزعة المبادلة والمعادلة.

ولعله من نافلة القول أن نفيض في بيان حكم القرآن على السجية الغالبة، سجية الأثرة والبغي والعلو، فالقرآن مشحون بذمها ومقتها والنعى عليها.

بحسب هؤلاء المسرفين في حب أنفسهم أن مقتهم مركوز في كل ضمير، وأن ذمهم منشور على كل لسان.

فإذا جاوزنا نطاق هذه الخطة المذمومة ويممنا شطر المبدأين الآخرين: مبدأ المحاسبة على قانون المساواة والعدل، ومبدأ المكارمة والمسامحة والفضل، فقد يلوح لنا في بادئ الرأي أننا نتجه بذلك نحو مبدأين ساميين، وقد نظن أن التفاوت بينهما في نظر القرآن لن يكون إلا تفاوتًا في مراتب النبل والسمو، بينما يجمعهما شعار الفضيلة، وينتظمهما شرف الحمد والثناء.

فهل يصدق هذا الظن؟

هل إذا نظرنا إلى هذين المبدأين في نظر القرآن الحكيم نراهما معروضين في معرض الفضائل المأمور بها، أو المرغب فيها، أو المثني عليها، وهل نجد التفاوت بين مكانهما في معرض الأخلاق القرآنية ليس إلا تفاوتًا في مقدار الحث والترغيب ومبلغ الحمد والثناء؟

إن القرآن حين وزع القيم الأخلاقية على هذه المبادئ، لم يجعل القسمة بينها قسمة ثنائية، ولكنه جعلها قسمة ثلاثية، لها طرفان وواسطة، جعل من بينها فضيلة واحدة رفعها إلى الطرف الأعلى، تلك هي فضيلة الإيثار، وجعل من بينها رذيلة واحدة، وضعها في الطرف الأدنى، تلك هي رذيلة الاستئثار.

أما الواسطة بين الطرفين وهي مبدأ المقاصة الدقيقة في الحقوق والواجبات، وتحري المساواة بينها - تلك القاعدة التى كانت الحكمة اليونانية تعدها أم الفضائل، فإنها في نظر القرآن ليست فضيلة ولا رذيلة، إنها لا تستحق عنده مدحًا ولا ذمًا، وإنما هي رخصة مباحة لا ثواب لها ولا عقاب عليها.

من كان في شك من ذلك كله فليقرأ قول الله جلت حكمته:

﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾

(الشورى: ٤١-٤٣)

هكذا دمغ رذيلة الظلم والبغي فجعلها مناط الذم واللوم، ومجلبة العقاب الأليم، ثم أشاد بفضيلة الصبر والمغفرة، فجعلها من عزم الأمور، وكتب على نفسه أنه سيدخر الأجر لصاحبها حيث قال:

﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ ﴾

(الشورى: ٤٠)

أمـا المقاصة في الانتصاف مـن الظلم فإنه لم يتبعها ذمًا ولا ثناء، ولم يرتب عليها ثوابًا ولا عقابًا، وكان كل حكمه فيها أنه رفع الحرج واللوم عن صاحبها فقال:

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ﴾

(الشورى: ٤١)

هذه القسمة الثلاثية نجدها في مواضع كثيرة من القرآن الحكيم:

﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ إِلَّا مَن ظُلِمَۚ﴾

(النساء: ١٤٨)

﴿إِن تُبۡدُواْ خَيۡرًا أَوۡ تُخۡفُوهُ أَوۡ تَعۡفُواْ عَن سُوٓءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّٗا قَدِيرًا﴾

(النساء: ١٤٩)

نهـي النـاس بـادئ ذى بـدء أن يغلـظ بعضهـم لبعـض بالفاحش من القول، فهذه هي الخطة المذمومة، خطة البدء بالإساءة.

وقـد بيـن أنهـا تسـتوجب غضـب الله، ثم اسـتثنى من اسـتحقاق هـذا الغضب مـن كانـت إسـاءته ردًا لمظلمة، فأخرجـه من عـداد المغضوب عليهم، ولكنـه لم يثن عليه ولم يرغبه في هذا الانتصاف، ثم ختم ببيان الخطة الحميدة والفضيلـة المنـدوب إليها، وهي خطة العفو عن الإسـاءة،

فأشـــار إلى أن من عفا عن سوء فقد تخلق بأخلاق الله، أليس الله يعفـو ويعفـو، ثم يعفو ويعفو، حتى كان اسـمه العفو، وهو مـع ذلك قدير على الانتقام، ثم ألا يذكر الذي أسـيء إليه أنه هو نفسـه ليـس بريئًا من الذنـب، ولا معصومًا من السيئات، فإن كان يحب أن يغفر الله له فليغفر هو لأخيه.

﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

(النور: ٢٢)

بين العدل والفضل

لقد قلبنـا النظر في جوانب كثيرة من إرشـادات القرآن الحكيم، سـواء في نطاق المعامـلات المالية، أو في دائرة الشـئون الاجتماعيـة، أو في معـرض الأحـداث الجنائية، فوجدنـاه فـي كل ذلـك ينهي عـن التزيد في حـق النفس، ويحض على الزيـادة في حق الغير، أما المعاملة بالمثل فلا نجـد فيها نهيًا عنهـا ولا تحريضًا عليها، وإنمـا نجد إذنًا وتخييرًا ورفعًا للحرج، لا زائد على ذلك.

هكـذا نظرنا في القرآن حين يتحدث في شـأن المعاملة الماليـة فوجدنـاه من جهـة ينهي عن أخذ الربـا، وعن أكل أمـوال النـاس بالباطـل، ومن الجهـة الأخرى يأمـر الدائن بإنذار مدينه المعسـر ويندبه إلى التصـدق عليه بدينه، أما المحاسبة على السواء فلا يذكرها القرآن قادحًا ولا مادحًا، ولكن مقررًا لوضعها القانونى المباح:

﴿ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾

(البقرة: ٢٧٩)

ثم نظرنا في القرآن حين يتناول أساليب المخالطة والمعاشرة فوجدناه من جهة ينهي عن الفحش والأذى، والخشونة والغلظة ومن جهة أخرى يأمر بالعفو عن الأذى، والإعراض عن اللغو ويثني الثناء المكرر على مقابلة الإساءة بالإحسان، أو بالتى هي أحسن، أما مقابلة السيئة بالسيئة فيتركها حقًا سائغًا لمن حرص عليها غير باغ ولا عاد.

ثم نظرنا في القرآن حين عرض لجريمة الإفك والقذف، فوجدناه ينهانا أن نعامل القاذف بقطع ما بيننا وبينه من رحم، أو يمنع ما يستحقه لدينا من بر وصلة، ويحرضنا أشد التحريض على أن نشمله بكريم الصفح والمغفرة، التماسًا لعفو الله ولمغفرته.

فإذا استقصينا هذه المثل وأشباهها، فإن المنطق يتقاضانا أن نستخلص منها هذه القضية الكلية وهي أن المعاملة الفاضلة في نظر القرآن إنما هي المعاملة التى تقوم على العفو والإيثار والفضل، وأن الرذيلة إنما هي في الطرف الأقصى، تقوم على الجور والاستئثار والبخس، أما الخطة التى بين بين، وهي المعاملة بالمساواة والمعادلة الدقيقة، فإنها إذا وزنت في معايير الحكمة القرآنية، لم تستحق أن تسمى فضيلة ولا رذيلة، وإنما هي رخصة لا

يتوجه إليها أمر ولا نهي، ولا يناط بها مدح ولا ذم، ولا يستحق صاحبها ثوابًا ولا عقابًا.

لكن الإشكال البارز في هذه النظرية، أنها في بادئ الرأي تصادم المعقول والمنقول: أما المعقول فهو ما تقرر في الفطرة السليمة أن العدل فضيلة، هو أس الفضائل، وأما المنقول فالقرآن الكريم نفسه كثيرًا ما يشيد بمبدأ العدل والمساواة:

﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾

(النساء: ١٣٥)

﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾

(المائدة: ٨)

﴿وَأَقْسِطُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾

(الحجرات: ٩)

فلننظر الآن في حل هذه المشكلة، وفي إزالة هذا التعارض.

إن مفتاح المسألة في نظرنا هو الفصل التام بين مقامين: مقام الحكم ومقام المعاملة: فمقام الحكم هو مجال العدل الدقيق الصارم، ومقام المعاملة هو مجال العفو والمسامحة، والمكارمة والمجاملة.

فالقاضـي حيـن يفصـل بيـن الخصميـن ، والوالد حين يوزع بره بيـن أولاده ، والمربى والمعلم ، والوصي والقيم ، وكل راع فـي رعيتـه ، ليس له أن يحابـي ، أو يجامل أو يؤثر أو يفضل ، إذ كيف يوثر بشـيء غيـره ؟ وكيف يتفضل بما ليس من حقه ؟

أتتملكه عاطفة الإِحسـان على البائس الفقير ، فيجامله في الحكم ؟ كلا .

﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾

(النساء : ١٣٥)

أتدفعه ثورة الغضب على العدو فيضاعف عليه الغرم ؟ كلا .

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟﴾

(المائدة : ٨)

أتحملـه صلة القرابة أو النسـب ، أو عصبيـة الإِقليم أو المذهب على التحيز لإِخوانه فيها ، ظالمين . . أو مظلومين ؟ كلا .

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾

(الحجرات : ٩)

أيحز في نفســه منظر العقوبة، أيزعجه صوت الشكاية، فيعفو عن الجريمة بعد أن ذاع صيتها، ورفع إليه أمرها؟ كلا.

﴿وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾

(النور: ٢)

أيترك دولة الإِســلام نهبًا لأعدائها، أو يقطعهم شبرًا من أرضها، أو يمنحهم حق التحكم في رقبة من رقاب أهلها؟ كلا.. إن أرض الإِســلام وحقوق المسلمين ليست ملكًا لفرد ولا لجماعة، وليســت حقًا لأمــة ولا لجيل من الأمم، إنما هي حق الأجيال كلها حتى يرث الله الأرض ومن عليها، فالتســامح فيها تصرف في حق الغيــر، والضن بها والدفاع عنها ليسا مشاحة[٢] في حظ النفس وإنما هو غضب لحرمة الله والوطن.

﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾

(البقرة: ١٩٠)

﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ﴾

(النساء: ٧٥)

هكذا نرى أن المجال الذي يكون فيه العدل فضيلة محمودة، بل فريضة مكتوبة، هو المجال الذي تكون أنت فيه طرفًا ثالثًا،

---

(٢) المشاحة: الضنة والبخل والحرص.

وسطًا بين طرفين، فيكون واجبك أن توفي كلا منهما حقه غير منقوص ولا مزيد، وكل شيء من المكارمة والإيثار هنا هو الجور بعينه، هذا ما نسميه مقام الحكم والفصل بين الناس، ونحن إذا تأملنا أكثر النصوص القرآنية التي وردت في مدح العدل والأمر به وجدناها صريحة في هذا الباب:

﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾

(النساء: ٥٨)

﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾

(ص:٢٦)

﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾

(المائدة: ٤٢)

أما حيث أنت أحد الطرفين، تتصرف في شيئك، وتساوم في حقك، فهذا ما نسميه مقام المعاملة، وهذا هو المجال الذي تتوجه فيه دعوة القرآن إلى العفو والمسامحة، وإلى الإيثار والمجاملة، وهو المجال الذي يخرج فيه مبدأ العدل والمساواة من نطاق الفضائل والرذائل جميعها، إذ يهبط من مستوى الواجبات إلى مستوى الرخص والمباحات.. وتبقى الفضيلة للفضل وحده.

الحلقة المفقودة

إننا نفهم الحرية الفردية فهمًا سيئًا متطرفًا، ونفهم المسئولية الاجتماعية فهمًا ناقصًا محرفًا، الدولة عندنا هي المسئولة عن كل شيء، هي التى يجب عليها أن تتعقب المذنبين وأن تتولى عقوبتهم، فإذا لم يصل إليها نبأ الجريمة، أو لم تصل هي إلى كشف معالمها، أو كانت مما لا يعاقب عليه القانون، تركنا نحن أيضًا صاحبها آمنًا مطمئنًا، يلاقي الترحيب والتكريم الذي كان يلاقيه من قبل، وتركنا كل فرد يسير سيرته الأولى غير شاعر بمسئوليته عن سلوك الآخرين، ولا حسب حسابًا لموقف الآخرين من سلوكه، عقد منفرط لا ينظمه سلك واحد، وجسم مفكك لا يهيمن عليه روح واحدة.

أتدرون ما هذه الروح الواحدة، التى يجب أن تسود وتهيمن على المجتمع، ؟ إنه الوعي العام الغيور المتيقظ، الحارس للقيمة المعنوية في الجماعة.

إن ها هنا سر الشفاء وحقيقة الدواء، أما ما وراء ذلك من دعوة الداعين، وإرشاد المرشدين، فليس في جملته إلا تلطيفًا وتسكينًا وقتيًا لبعض جوانب المرض، ذلك أن الذين تتفتح أسماعهم وقلوبهم لهذا الإرشاد إنما هم الصالحون الخيرون، وقليل ما هم، وإن الذين تنطبع به مشاعرهم وتتحرك به عزائمهم، من بين هؤلاء القليل،

هم أقل القليل، أما السـواد الأعظم من المسـتمعين فإنهم متـى انصرفوا إلى شـئون الحياة في البيـت أو في الطريق، في المدرسـة أو في الديوان، في الأندية أو في الأسواق، في المصانع أو في المزارع، فإنهم سـرعان ما ينسـون، لأنهم لا يجـدون في بيئة منهـا وازعًا ولا نازعًـا[٣] ولا مذكرًا ولا محذرًا، بـل يجدون فيها مـن ضروب الإهمـال والتهاون، ما قد يغريهم بالعبـث أو الإجرام، هكذا تهدم الجماعة في سـاعة واحدة ما تعبت في بنائه أيـدى القادة والمصلحين، وهكذا تكـون الجماعة هي التى تمهد السـبيل لأبنائها أن يقفوا مواقـف الإثم والبغي، وهي التـى تقودهم في النهاية إلى أسوأ العواقب وأشد العقوبات.

نحـن إذن فـي حاجـة ملحـة إلـى إيقـاظ هـذا الضمير الاجتماعي في الأمة، لا عن طريق الدعوة المُوعظَة فحسب، بل عن طريق عملي جدى، نحن بحاجة إلى تكوين رأي عام أخلاقـي، له نفوذه واحترامه فـي نفوس كل الأفراد، بحيث يشعر كل امرئ أن إساءته – دقت أو جلت – ستلاقي جوابًا سـريعًا علنيًا في سلوك المجموع بإزائه، إننا نريد أن يشعر كل بـاغ على حق غيـره، وكل خائن لأمانتـه، وكل مضيع لواجبـه، وكل خـارج علـى الآداب في صورة مـن الصور..

(٣) وازعًا: مانعا أو كافا. نازعًا: مقتلعا لهم من تلك البيئة

نريد أن يشعر بأنه قبل أن يؤاخذه القضاء، وقبل أن يواجهه التحقيق، ستصوب نحوه جهارًا سهام النقد والذم، وسيذوب وجهه خجلاً، تحت نظرات السخط والمقت، وسيحرم من عطف المجتمع ومعونته، وأنه لن يبسم في وجهه أحد، ولن يبادله التحية أحد، وأنه سيعيش مهجورًا منبوذًا حتى يراجع نفسه ويعدل من سيرته.

هل أتاكم نبأ الثلاثة الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ، حين خرج هو وأصحابه إلى الجهاد، في سفر شاق طويل، وفي إبان القيظ الشديد؟ فلما عاد من السفر، وسألهم عن سبب تخلفهم، صدقوه الخبر، واعترفوا له بأنهم لم يكن بهم مرض ولا عوز، وكان كل ذنبهم أنهم طال بهم التجهيز للرحيل، حتى فاتتهم القافلة.

أتدرون ماذا فعل القائد الحكيم؟! أمر الناس.. فاجتنبهم الناس اجتنابًا، بل اعتزلهم أهلهم ونساؤهم، ولبثوا على ذلك خمسين يومًا وليلة، حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وضاقت عليهم أنفسهم، ثم تاب الله عليهم بعد أن انصهرت قلوبهم بهذه المقاطعة الشاملة، التى كانت أنكى فيهم من حد السيف.

لقد نهي الناس عن كلامهم، حتى يقضي الله في شأنهم، وهذا هو طراز التربية الناجعة، الذي نريد أن نترسم منهاجه، وتلك هي الحلقة المفقودة، التى لو وضعناها في مكانها

من جهاز حياتنا العامة، لاستراح الحاكم والمحكوم وكاد لا يبقى بيننا ظالم ولا مظلوم.

إن مفتاح الحل بين المجتمع نفسه، هو أن يحاول أفراده أن يكونوا يدًا واحدة في الصراحة بالحق، يبدأون ببذل النصيحة بالحسنى لكل من زلت به قدمه، فيذكرونه كلما نسي، وينهونه كلما غفل.. حتى إذا عاود وعاند، أشعروه بإعراضهم، وحرموه بشاشة وجوههم حتى يفيء إلى أمر الله.

إن هذه المقاومة السلبية الأدبية، هي معنى تغيير المنكر بالقلب، لمن عجز عن تغييره باليد واللسان، هي التي صدر فيها النطق النبوي الحكيم بأنها هي أضعف درجات الإيمان.

فإنكم إن قمتم اليوم بوضع حجرها الأساسي أيها المسلمون فتحتم فتحًا مبينًا في تدعيم نهضة المجتمع، والتعجيل بإنضاج ثمراتها المباركة.

* * *

بين المثالية والواقعية

يمتاز التشـريع الإِسـلامي بأنه تشريع وسـط يقوم على أساس من الاعتدال؛ الاعتدال في كل شيء.

في التعبد، بحيث لا يتطرف المسلم ولا يتحلل:

«إن الدين متين فأوغل فيه برفق...»[٤]

وفي الحياة المعيشية، بحيث لا يسرف ولا يبخل:

﴿ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ ﴾

(الإِسراء: ٢٩)

وفـي الأكل والشـرب، بحيـث لا يبالغ الإِنسـان فيهما مبالغة تصيبه بالتخمة التى تنشأ الأمراض عنها، ولا يقتصد اقتصادًا يلحق به الضعف والهزال.

في كل شـئون الحياة يتطلب الإِسلام الاعتدال، ليكون بمثابة تطبيق للأساس الذي قام عليه بناء الأمة الإِسلامية:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ (البقرة: ١٤٣)

هكذا يقف الإِسلام دينًا وسطًا..

لا يجنـح إلـى المثاليـة الخياليـة، لأنها أشـبه ما تكون بضـرب من ضـروب المحال، ولأنها تكليـف للنفس فوق طاقتها، وضد غرائزها وطبائعها.

كما لا يميـل إلى الواقعية المتزمتة، لأن فيها عزوفًا عن المثل العليا.

(٤) من حديث رواه أحمد بن حنبل ١٩٩/٣.

ولأنها تطبع النفس بطابع التزمت الممجوج..

وإنما يقف وسطًا، فهو يأخذ من المثالية، ما تستوعبه من المثل العليا: ويأخذ من الواقعية، ما تتضمنه من حزم وعدل وعزم.

إن النفس البشرية جبلت على نزعتي الرضا والغضب، وطبعت على غريزتي الحب والكراهية، والعفو والقصاص، والمثالية تأبى إلا أن تطبع النفس- فحسب- بطابع الرضا والحب والعفو، وهذه هي المثالية الخيالية التى لا طاقة للنفس البشرية بها.

فإذا كنا نرضى في كل حال، فلابد أن نتخلى عن الرجولة والنخوة، وقد كان الرسول- صلوات الله عليه – يغضب إذا انتهكت محارم الله.

وإذا كنا نحب في كل حال، فلابد أن نغض الطرف عن كل ما هو بغيض، وبذلك لا تظهر قيمة الحب، وقد كان رسول الله ﷺ، يحب ويبغض في الله..

وإذا كنا نعفو في كل حال، فلا بد أن نتخلى عن القوة والشجاعة، ونضرب صفحًا عن قاعدة القصاص، وهذا كتاب الله يقول: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ (البقرة: ١٧٩)

إن الإسلام يرغب في الواقعية الحازمة تطبيقًا لمبدأ العدل، كما يرغب في المثالية المعتدلة، تطبيقًا لمبدأ الإحسان، وهذا ما عناه القرآن حين قال:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ (النحل: ٩٠)

مع آداب القرآن

تصافح وتسامح، تواضع وتنازل، تسابق إلى الفضل والإِيثار، قبول للقليل، وبذل للكثير... ذلك هو معنى الإِحسان، وذلك هو أدب المعاملة في القرآن. شرعه الله للخلطاء والعشراء القرناء والعملاء، وجعله بينهم هو الفضيلة الوحيدة، التى تستحق حمده وثناءه، وتستوجب عنده جميل جزائه..

غير أن هذه الفضيلة العملية الاجتماعية، على عظم قيمتها، وجزالة نفعها، سوف تبقى عملا سطحيا، وعرضًا وقتيًا، لا ثبات له ولا استقرار، بل سوف تكون أقرب إلى الرياء منها إلى العمل الفاضل، ما لم تصدر طوعًا واختيارًا عن نفس راضية مطمئنة، غير كارهة ولا مكرهة. ألم يأتك نبأ قوم لم يتقبل الله منهم نفقاتهم، بل قال لهم:

﴿أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾

(التوبة: ٥٣)

ثم بَيَّن الأسباب التى منعتهم أن تقبل منهم نفقاتهم وكان من تلك الأسباب أنهم كانوا:

﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾

(التوبة: ٥٤)

فلكي تكون هذه الفضيلة الاجتماعية : فضيلة حقيقية ، لا بد إذا أن تستند إلى فضيلة نفسية فردية ، مركوزة في نفس العامل ، مغروسة في قرارة قلبه . . تلك هي فضيلة الطهر وسلامة الصدر ، فضيلة الصفاء والنقاء الذي لا يشوبه غل ولا دخل ، ولا حقد ولا حسد . . .

فضيلة المحبة الشاملة ، والرحمة السابغة ، التى تضم تحت جناحيها أصناف الخلق كلهم ، قريبهم وبعيدهم ، عالمهم وجاهلهم برهم وفاجرهم ، بل أقول مؤمنهم وكافرهم .

رحمة تقتبس من رحمة الله الذي وسعت رحمته كل شيء وشملت الكافر والمؤمن على السواء ، وتتخذ أسوتها في خلق رسول الله ﷺ ، وتهتدي بهدي أصحابه والذين اتبعوهم بإِحسان .

رحمة تتخذ أسوتها في خلق رسول الله ، الذي كان مضرب المثل في شفقته على أعدائه ، وحرصه على خيرهم ، وخشيته من نزول العذاب عليهم ، حتى كان يدعو لهم إذا آذوه ، ويستغفر لهم إذا كذبوه ، بل كان يبكى إذا سمع قارئًا يقرأ قول الله :

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾

(النساء : ٤١)

لا أحدثك في هذا عن إحسانه إلى فقيرهم، وعيادته لمريضهم، وصلته لجيرانه منهم، وسائر أنواع بره ومواساته لهم، فتلك فضيلة اجتماعية مفروغ منها، ولسنا بصدد إثباتها وإنما أحدثك عن منبع هذه الفضيلة في نفسه الشريفة، ومدى تمكن أصلها في قلبه الكريم.. أحدثك عن هذا القلب الشفيق الرقيق، السخي الودود، هذا القلب الإنساني العالمي، الذي استحق به شهادة الله له في كتابه حين يقول:

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾

(التوبة: ١٢٨)

فانظر كيف شهد له بالشفقة على الجميع، وإن كان للمؤمنين من رأفته ورحمته النصيب الأكبر، والحظ الأوفر:

﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾

(التوبة: ١٢٨)

وكما شهد القرآن للرسول صلوات الله عليه بهذه الرحمة الإنسانية، شهد بها للمؤمنين الأولين، شهد لهم بأنهم يحبون أعداءهم وإن كان أعداؤهم لا يحبونهم، ألم تسمع إلى قول الله تبارك وتعالى:

﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾

(آل عمران: ١١٩)

لا تظن أن هذا أسلوب لوم وعتاب للمؤمنين على محبة من لا يحبهم، لا يستقيم في نسق الآية الكريمة:

﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾

(آل عمران: ١١٩)

أفتراه يلومنا كذلك على الإيمان بكتابهم ما داموا لا يؤمنون بكتابنا إلا رياء ونفاقا؟ كلا إن علينا أن نؤمن بالكتاب كله آمن الناس أم لم يؤمنوا، وإنما الذنب على من يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض، فكذلك لا لوم علينا في محبتهم.

إنما اللوم عليهم إذ لم يبادلونا حبًا بحب.. هكذا تتجه الآية الحكيمة اتجاهًا واحدًا وتسير في نظام متناسق، غير ممزق ولا متعاكس، إذ تجعل محط استنكارها في كلا شطريها آخر جزء من الكلام، على منهاج قوله تعالى:

﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾

(البقرة: ٤٤)

فليس المستنكر هو أن نأمر الناس بالبر إذا كنا لا نعمل به، وإنما المستنكر هو أن ننسى أنفسنا من الخير الذي

نعمله للغير، كذلك المستنكر هاهنا ألا يحبنا الآخرون الذين نحبهم.

ومهما يكن من أمر في تأويل هذا النص الكريم، فحسبنا أن نسجل ها هنا ما سجله الله في غير موضع من كتابه المجيد، وهو أن هذه المحبة الشاملة، والرحمة السابقة، خلق من أخلاق النبوة المحمدية، وأن نسجل إلى جانب ذلك قول الله سمت هدايته:

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾

(الأحزاب: ٢١)

ليخرج لنا من بين هاتين المقدمتين مصداق القضية التى نقررها، وهو أن هذه المحبة الشاملة هي الخلق الذي يرضاه الله لسائر المؤمنين، لكأني بمن يقرأ هذا البحث في هذه المحبة والرحمة التامة العامة، يظنه حديثًا عن حلم من الأحلام، أو عن شريعة غير شريعة الإسلام، أو عن عالم غير عالم الإنسان...

نعم لكأني به يهمس الآن في أذني قائلاً:

أليس كل بشر يحب ويكره، ويرضى ويغضب، ويوالي ويعادي، دلني على كائن من البشر لا يبغض ولا يعادي أحدًا، أقل لك إنه إذا لا يحب ولا يوالي أحدًا، إنه إذا ليس من البشر... هبه خيرًا محضا، فهو إذا

يحب الحـق والخير، وبالتالي يحب أهـل الحق والخير ويواليهـم، وهو إذا يكره الإثـم والباطل، وبالتالى يكره أهل الإثم والباطل ويعاديهم، فإن لم يبغض هؤلاء فكيف يحب أولئك؟ وإذا كانت هذه هي طبيعة النفس الإنسانية فكيف تطالبنا بأن نجرد أنفسـنا تجريدا كاملا عن نزعة الكراهية والبغض لأحد من الخلق، أليسـت هذه مطالبة لنا بما هو فوق طاقتنا، وتكليفًا لنا بما ليس في وسعنا، ثم هذه المحبة العالمية المثالية الخيالية، كيف تتفق مع واقعية الإسـلام، بل مع وصايا الإسلام؟ أليس من علامة الإيمان الحب في الله، والبغض في الله؟

إن فـي أدب القـرآن، مبدأين متعارضيـن، أو بعبارة أدق يبدوان متعارضين في بادئ الرأي؟

المبدأ الأول:

مبـدأ الفضيلـة الإنسـانية والتـى تتقاضانـا أن نشـمل الناس جميعًـا برحمتنا ومحبتنا تخلقًـا بأخلاق الله، الذي وسـعت رحمته كل شـىء، وتأسيًا برسـول الله ﷺ، الذي كان مضـرب المثـل في الشـفقة على الجميـع، والحرص علـى خير الجميع، وانتظامًا في سـلك المؤمنين الأولين، الذين كانوا يحبون أهل الديانات السابقة وإن كان هؤلاء لا يحبونهم، وأخيرًا عمـلا بتوجيه القرآن الكريم الذي عقد بين الناس جميعًا رحمة الأخوة النسـبية، ثم جعل التذكرة

بهذه الأخوة وسـيلة لاسـتدرار عاطفة الرحمة على كل من يشاركنا فيها فقال عظمت حكمته:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ﴾

(النساء: ١)

فوصـى بصلـة الأرحـام كلها قريبهـا وبعيدهـا، رحمة العقيدة، ورحمة الإنسانية الجامعة.

هـذه الفضيلـة الإنسـانية، إذا كانت فضيلـة حقيقية، منبعثة عـن نفس راضية مطمئنة، فإنهـا تقتضينا أن نحب فلا نبغض أحدًا وأن نوالى فلا نعادى أحدًا.

هذا هو المبدأ الأول، مبدأ المثالية العليا.

المبدأ الثاني:

مبـدأ الواقعية العملية الذي تتسـم بـه وصايا القرآن في شئون التشـريع عامة، وفي شـأن الحب والبغض خاصة.. فالقـرآن يقرر ويكرر أنه دين الفطـرة، وأنه لا يحمل أحدًا فوق طاقته، ولا يكلف نفسًا إلا وسعها، ومعلوم أن النفس البشرية- وقد طبعت على نزعتي الرضا والغضب، وجبلت علـى غريزتي المحبة والكراهية، لا يمكنها أن ترضى عن النقيضيـن ولا أن تجمع بين محبة الشـىء وكراهيته، كما

ليس في وسعها أن تتحول من العداوة إلى المودة بمحض اختيارها، ألم يقرر القرآن نفسه أن هذا التحول ليس من صنع البشر، وإنما هو من صنع الله وحده:

﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ﴾

(آل عمران: ١٠٣)

﴿لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾

(الأنفال: ٦٣)

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ﴾

(الممتحنة: ٧)

فانظر كيف اعترف بوجود العداوة بيننا وبين فريق من الناس، ثم لم ينهنا عنها، ولم يأمرنا بالتخلص منها، ولكنه بعث في نفوسنا الأمل بأن عدو اليوم قد يكون حبيب الغد، إذا شاء الله، وأنه قدير، وأنه غفور رحيم.

وتدبر كذلك قول الله تبارك وتعالى:

﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْ﴾

(المائدة: ٨)

﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْ﴾ (المائدة: ٢)

فقرر وجود البغض والشنآن، ولم ينهنا عنه، وإنما نهانا أن نتخذه ذريعة للجور والعدوان، بل هناك ما هو أوضح من ذلك دلالة، ففي هذه الأمثلة نرى القرآن يكتفي بأن يترك نزعة العداوة والبغضاء على سجيتها فلا يأمر بها ولا ينهي عنها، وإنما ينهي عن لواحقها، التى تقع في حدود إرادتنا وقدرتنا، ولكننا نرى القرآن في مواطن أخرى، يأمرنا بعداوة من يستحق العداوة، وينهانا عن موادة من يستحق المودة:

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ (المجادلة: ٢٢)

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾

(الممتحنة: ٤)

وكذلك نرى الرسول- صلوات الله عليه- يجعل من علامة الإيمان: الحب في الله والبغض في الله.

كيف نوفق إذا بين هذه النصوص الصريحة المفصلة، وبين تلك الوصايا العامة التى تناشدنا أن نسبغ ثوب عفونا وصفحنا، وأن ننشر جناح رحمتنا ومحبتنا على الإنسانية

كلها برها وفاجرها .

هذه هي المشـكلة الأخلاقية التى سنحاول بمشيئة الله حلها .

بطريقـة تلتقي بهـا المثالية والواقعية فـي هذه الوصايا المختلفة . مع بقاء المثالية فيها على عمومها وشـمولها ، دون أن تنقـص الواقعيـة منهـا جزيئة واحدة فـي أي وضع فرضناه من أوضاع حياتنا الاجتماعية . . . .

فالناس معنا في هذه الحياة على أحد أوضاع ثلاثة :

إما أن يكونوا سلمًا لنا ولمبادئنا ، كافين أذاهم عنا وعن أمتنا ، وإما أن تبدو منهم بادرة أذى تنال أشخاصًا فحسب ، وإما أن ينتهكوا حرمة من حرماتنا المقدسـة في حق الله أو في حق الجماعة .

فلنعالج هذه الأوضاع الثلاثة ، لننظر كيف نسـتطيع أن ننطوي على محبة الناس جميعها في كل وضع منها .

لنبدأ من هذه الأوضاع بأيسـرها وأطوعها لمبدأ المحبة المثالية العالمية ، ألا وهو الوضع الأول ، المسالم المحايد !

قـدر في نفسـك أنـك قـد اسـتيقظت في الصبـاح من نومك ، وأخذت تسـتعد لخوض غمـار الحياة في يومك . . فسـل نفسـك إذا : على أي قاعـدة تريد أن تخالـط الناس وتعاشـرهم ؟ أتريد أن تتخذهـم مقدماً عـدوًا لك تبدؤهم بالعـداوة قبـل أن يبـدأوك ؟ أترتجـل عداوتهـم ارتجـالا ؟

أتبيعهم إياها بالمجان؟

ليت شعري كيف ينطوي على هذه النية إنسان؟

اللهم إلا أن يكون أحد رجلين:

«رجل أفسد سوء الظن فكره وخياله، فجعل يتصور نفسه أمام قطيع من الوحوش الكاسرة، فلا بد له أن يأخذهم قبل أن يأخذوه، وأن يرميهم بالشر قبل أن يرموه!

ورجل أعماه الطمع، وأكل قلبه الجشع، فجعل يظن أن كل نعمة في يد الناس إنما هي انتقاص من نعمته، وأن كل حظ ينال أحدًا من الناس إنما هو استلاب من حظه، وأنه لن يكون له نصيب في الحياة إلا باسترداد ما سبقوا إليه من حظ ونعمة.. نظرات مريضة، ترى الإنسانية من خلال منظار أسود قاتم، هذا ينظر إليها نظرة القانص إلى فريسته، وذاك ينظر إليها نظرة الفريسة إلى قانصها.

كلا! ما هكذا ينظر أرباب الطباع الكريمة، ولا أصحاب العقول السليمة وإنما ينظرون إليها نظرة الطير إلى عشه الذي يؤويه، وإلى أجنحته التى يطير بها.

فكذلك فلتكن نظرتنا إلى أفراد أسرتنا الإنسانية، نظرة كل فرد منا في أسرته الخاصة إلى أمه وأبيه، وإخوته وبنيه، نظرة قوامها الحنان والرحمة والاستبشار والتفاؤل، والعطف وحسن الظن، نظرة إن خالطها الحذر حينا، فإنها في انطلاقتها الأولى نقية بريئة، سليمة من كل

غل وضغينة.

هذه النظرة المحبة الرحيمة، الشاملة السابغة، ليست داخلة في حدود الإمكان وحسب، ولكنها واقعية عملية تعرفها القلوب الراضية المطمئنة، وإنها عند الله لأفضل من كثير من الصلاة والصيام.

إن رسول الله ﷺ بشر رجلا من الأنصار بالجنة ثلاث مرات في ثلاثة أيام متواليات، فأخذ عبدالله بن عمرو يحتال لمعرفة سيرة الرجل وعمله الذي استحق به هذه البشارة، فلم يجد له امتيازًا في نوافل العبادات، فسأل الرجل عن شأنه فقال له:

«يا عبد الله.. هو ما قد رأيت، غير أني لا أجد في نفسي غلاً لأحد»..!

❊ ❊ ❊

نحو محبة شاملة

إذا أردت أن تطاع، فأمر بما يستطاع..

كلمة يوجهها الجمهور دائمًا إلى كل داع يدعو إلى فضيلة نبيلة مثالية.. وأن من أخص هذه الفضائل المثالية فضيلة المحبة الشاملة.

فإذا قال الداعي: لتكن نظرتنا إلى البشر نظرة محبة رحيمة عطوفًا ألوفا، قالوا: إن كنت تعني أن تكون هذه هي نظرتنا الأولى حين نصبح كل يوم، قبل أن نبدأ صحيفة أعمالنا اليومية فسمعًا وطاعة، إذ لا معنى لافتراض السوء والشر في الناس اعتباطًا من غير بينة، ولا مبرر لعداوتهم بالمجان، دون تجربة سابقة.

وإن كنت تعني أن نطبق هذا المبدأ على الذين عاشرناهم وجربناهم فكانوا علينا رحمة وسلامًا، لم يصل إلينا من عشرتهم سوء، ولم ينالونا بأذى، فسمعًا وطاعة كذلك، هل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟

أما إن كنت تريد أن تنشر جناح هذه الرحمة والمحبة، حتى على من خالطناهم فوجدنا منهم خشونة وغلظة، ومنعًا للخير، وهمزًا ولمزًا بالغيب، فقد أمرت بما لا يطاع ولا يستطاع، وتلك هي المثالية الخيالية، التى لا مجال لها في دنيا الناس، أليست النفوس مجبولة على حب من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها، فكيف تأمر أن نحول فطرتنا

ونغير طبيعة نفوسنا، حتى نحب أعداءنا؟

ولئن كنت تريد فوق ذلك كله أن نغدق هذه المحبة والرحمة حتى على الذين فرطوا في جنب الله؛ وأساءوا في حق المجتمع، حتى على المجرمين والمفسدين، فقد جئت شيئًا نكرًا، إذ كيف تأمرنا أن نحب عدو الله، وعدو المؤمنين؟

هكذا تتنوع الإنسانية في نظرهم إلى أربعة أصناف: صنفان منهم أهل للمحبة والولاء من أولانا وسالمنا ومن جانبنا وحايدنا، وصنفان أهل للكراهية والعداوة، من عادانا وآذانا، ومن اعتدى على حرماتنا ومقدساتنا، وإن لم يمس أشخاصنا بسوء.

فمن دعا إلى محبة البشر كافة، محبة تنتظم صديقهم وعدوهم، وتسع برهم وفاجرهم، فهو في نظرهم رجل انطوى على نفسه في برج عاجي، فلم يجرب أذى الخلق وشرهم، ولم يكتو بنار فسادهم وإفسادهم، ولو أنه نزل إلى ميدان العمل في الجماعة، لرأي كيف يثير العمل غبارًا تقذي به عينه، وكيف يولد الاحتكاك شرارًا يحترق به صدره، ولكان عليه أن يقول لنا عندئذٍ، كيف يستطيع أن يحب مثار هذا الغبار؛ وكيف يطيق أن يرجح مبعث هذا الشرار؟

ألا فلنلب دعوة هذا الناقد.. لننزل معه إلى ميدان

العمل، ولنستقبل ما يثار فيه من غبار وشرر، ولننظر كيف نعالج المثير والمثار، يقول القائل: كيف أحب عدوي؟ أليس هذا تناقضا وإحالة.

نقول: كلاً! إن هذا التناقض ليس في الأمر الواقع، ولكن في الصورة التى صورت بها الوقائع، إنك تسمى المسيء، إليك عدوًا مصرًا عامدًا، فلا تقدر أن تحبه، أما أنا فأسميه صديقًا مخطئًا جاهلاً: أستطيع إذاً أن أحبه.

ولأفسر لك ذلك:

ألست تزعم أنك برئ لم تقترف إثمًا ولا ظلمًا، وإنما آذاك بغير ذنب جنيته؟ إنه إذا لا يوجه هذا الأذى في الحقيقة إليك وإنما يوجهه إلى شخص مذنب تخيله فيك، ولو انكشف له حقيقة أمرك، لكان بك برًا رحيمًا، بل كان لك وليًا حميمًا، فلتحتمل الآن هذا الأذى ولتغمض عينيك لحظة عن هذا القذى، ريثما ينجلي له وضعك في سلامة واستقامة، وينكشف له جوهرك في طهره ونقاوته، وليكن هذا الإغماض والاحتمال على غير كره ولا مضض، ولكن منبعثًا عن قلب مؤمن مطمئن شفيق رفيق.. أرأيت ولدك الصغير حين تعطيه الدواء فيصيح في وجهك، ويدفع بيديه ورجليه في صدرك، أتراه بفعلته هذه صار أهلاً لأن تتخذه عدوًا لك، وتنتزع رحمة بنوته من قلبك، ألست ترثى لطيشه ورعونته، وتلتمس له عذرًا من غرارته وجهالته،

ألست تبتســم له ابتســامة رحيمة يذوب منها خجلاً، حين يشــعر بأنه أذنب فعفوت، وأنه أســاء فأحســنت؟ فكذلك فلتكــن نظرتنــا إلى إخواننــا الذين يســيئون إلينا في طيش وجهالة، من غير ذنب جنيناه.. فتذوق نفوسنا حلاوة العفو عنهم وعن إساءتهم، ولتطمئن قلوبنا أنه متى انكشفت هذه الغشــاوة، سوف يندم المسيء على فعلته، وسوف يستغفر لنا عن زلته، بل ســوف تنقلب عداوته محبة وتتبدل سيئته حسنة وصدق الله:

﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾
(فصلت: ٣٤)

ســيقول الســائل لئــن صح هذا التفســير فــي طائفة من الذنــوب يســتحب العفو عنهــا، والرفــق بأصحابها، فلقد علمنا الكتاب والســنة أن هناك طائفــة أخرى من الذنوب، لا تقبــل فيها شــفاعة ولا ينبغي أن تأخذنــا بأصحابها رأفة، تلك، هي حدود الله وحقوق الأمة، أليس من التناقض البيِّن، أن نشــمل أولئك المجرمين المفسدين بمحبتنا ورحمتنا؟ أنعاقبهم ونقول لهــم إننا نحبكم؟ أنقتلهم ونقول لهم إننا نرحمكم؟

رويــدًا أيها الســائل: إن مفتاح هذه المســألة، وحل هذه المسألة، في تعيين الزاوية التى ننظر منها إلى العقوبة، وفي

تحديـد الهدف الذي نرمي إليه مـن ورائها، أرأيت الطبيب حين يجري الجراحة القاسية الأليمة، طلبًا لشفاء المريض وسـعيًا فـي إنقاذه، أتقـول: إنه بذلـك قد اتخـذ المريض عـدوًا له أم هي الرحمـة في جوهرهـا وصميمها؟ فكذلك نحـن حين نقيم الحدود المقررة ونوقع العقوبات الزاجرة، ولا نفعـل ذلـك تشـفيًا وانتقامًا من الأشـخاص المذنبين، ولكن تهذيبًـا وتطهيرًا لهم، ورحمة بهـم وبالجماعة التى يعيشـون فيها.. إن صدورنـا ينبغي أن تبقى نقية من الحقد والكراهية لأشـخاصهم، وإن سهام مقتنا يجب أن نصوبها إلى جرائمهم، لا.. لهم..

أمـا أنه لو كانت نظرة القرآن إلى العقوبة نظرة التشـفي والانتقـام من المسـتحقين لها، إذا لأوقدوهـا عليهم حربًا لا تطفـأ نارها، وما قبل منهـم بعد ذلك تبديلاً ولا تحويلاً، كيف وهو يقول:

﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۗ ﴾

(المائدة: ٣٩)

ويقول: ﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ (البقرة: ١٩٢)

هكذا تلتقي المثالية والواقعية في وصايا القرآن الحكيم؟

﴿ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴾

(التين: ٨)

بلى هو أحكم الحاكمين.

الإسلام.. والعلاقات

هــل جاء الإِســلام ليكون دينًا محليًا ، يســتوعب جزيرة العرب . . وما حولها ؟

وهل جاء ليدعو إلى إيجاد أمة إسلامية تتعصب لدينها وجنسها ؟

أولاً – لــم يجئ الإِســلام ليكون دين الجزيــرة العربية ، لأنه بدأ يخاطب الناس جميعًا : وأعلن أن رسالته إلى العالم كافة .

وثانيًا – لوجاء ليكون أمة إسلامية وسطا ، تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر ، لما كان في ذلك شيء . . وإنما الحقيقة التــى يجب أن توضح لكل ذى عينين ، هي أن الإِســلام وإن كان قد جاء لتأليف أمة إسلامية ناهضة – إلا أنه قد دعا إلى أخوة عالمية تقوم على أساس من التعارف :

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَـٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَـٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾

(الحجرات : ١٣)

ودعا إلى العلاقات العامة على أسس من الحب والبر والعدل :

﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾

(الممتحنة : ٨)

وقد نشــد الإِســلام الســلام العالمي ، ليكــون دعامة في العلاقات الدولية :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ﴾

(البقرة: ٢٠٨).

والإسلام عنى بكرامة الفرد، الذي هو لبنة في البناء الإنساني، وذلك ليكون عضوًا مؤسسًا في العلاقات العامة:

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ ﴾

(الإسراء: ٧٠).

إن هدف الإسلام من إيجاد أمة إسلامية، إنما لتكون أمة وسطًا، تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر، وذلك لتؤدي مهمة نبيلة إنسانية من أجل السلام العالمي، والأمن الدولي.

ولا ريب في أن أمة – هذا هدفها، وهذه رسالتها – لا بد أن تدعم بناء العلاقات العالمية وتعمل على صيانتها، ضد عواصف الشر، وملاحم الفتن.

إن في قوله تعالى:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾

(الأنبياء: ١٠٧).

معنى إنسانيا وافيًا، لا يدع مجالاً لذرة من الريب، في أن الإسلام إنما جاء ليمنح البشرية: الأخوة .. والحب .. والسلام ..

الإسلام وكرامة الفرد

الفرد هو اللبنة في بناء المجموع، وهو عضو مؤسس في العلاقات العامة. فهل عرف الفرد الإنسانى ماله في دستور الإسلام، من منزل عزيز كريم؟

إن الكرامة التى يقررها الإسلام للشخصية الإنسانية، ليست كرامة مفردة ولكنها كرامة مثلثة: كرامة هي عصمة وحماية، وكرامة هي عزة وسيادة، وكرامة هي استحقاق وجدارة..

كرامة يستغلها الإنسان من طبيعته:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾

(الإسراء: ٧٠).

وكرامة تتغذى من عقيدته

﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾

(المنافقون: ٨).

وكرامة يستوجبها بعمله وسيرته:

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾

(الأنعام: ١٣٢).

﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾

(هود: ٣).

أوســع هذه الكرامــات وأعمها وأقدمهــا وأدومها ، تلك الكرامة الأولي ، التى ينالها الفرد منذ ولادته بل منذ تكوينه جنينًا في بطن أمه .. كرامة لم يؤد لها ثمنًا ماديًا ولا معنويًا ولكنهــا منحة الســماء التــى منحته فطرتــه ، والتى جعلت كرامته وإنسانيته صنوين مقترنين في شريعة الإِسلام.

ما حقيقة تلك الكرامة ؟

إنها قبل كل شيء سياج من الصيانة والحصانة ، هي ظل ظليل ينشــره قانون الإِســلام على كل فرد من البشر : ذكرًا أو أنثي ، أبيض أو أســود ، ضعيفًــا أو قويًا ، فقيرًا أو غنيًا من أي ملة أو نحلة فرضت .. ظل ظليل ، ينشره قانون الإِسلام على كل فرد يصون به دمه أن يســفك ، وعرضه أن ينتهك ، ومالــه أن يغتصب ، ومســكنه أن يقتحم ، ونســبه أن يبدل ، ووطنــه أن يخــرج منه أو يزاحم عليــه ، وضميره أن يتحكم فيه قسرًا ، وحريته أن تعطل خداعًا ومكرًا ..

كل إنســان له في الإِسلام قدســية الإِنسان ، إنه في حمى محمــي ، وفي حــرم محرم .. ولا يزال كذلــك حتى ينتهك هو حرمة نفســه وينــزع بيده هذا الســتر المضروب عليه ، بارتــكاب جريمــة ترفع عنه جانبًا من تلــك الحصانة ، وهو بعد ذلك بريء حتى تثبت جريمته وهو بعد ثبوت جريمته لا يفقــد حماية القانون كلها ؛ لأن جنايته ســتقدر بقدرها ، ولأن عقوبتــه لــن تجاوز حدهــا ؟ فإِن نزعت عنــه الحجاب الذي مزقه هو ، فلن تنزع عنه الحجب الأخرى.

بهذه الكرامة يحمي الإسلام أعداءه كما يحمي أبناءه وأولياءه إنه يحمي أعداءه في حياتهم، ويحميهم بعد موتهم، يحميهم في حياتهم، فيحول دون قتالهم إلا إذا بدءوا بالعدوان .. ويحميهم في ميدان القتال نفسه، إذ يؤمنهم من النهب والسلب والغدر والاغتيال، ثم يحميهم بعد موتهم، إذ يحرم أجسادهم على كل تشويه أو تمثيل .. ولم لا ؟ أليسوا أناسي؟ فلهم إذن كرامة الإنسان..

هذه الكرامة التى كرم الله بها الإنسانية في كل فرد من أفرادها، هي الأساس الذي تقوم عليها العلاقات بين بني آدم .. هذه الكرامة التى جعلها الإسلام درعًا واقيًا يدرأ بها عن الإنسانية نزوات الطغاة والجبارين، هل أشعر الإسلام بها الضعفاء والمستضعفين؟

إن الكرامة نفسها شيء والشعور بها شيء آخر، والشعور الحاد القوى شيء ثالث .. حسن جميل أن تقرر الحق لأربابها وتوضح لهم معالمه .. ولكن أحسن وأجمل أن تمهد لهم طريق حمايته، وأن تجعل صورته في نفوسهم شعلة متقدة تدفعهم للذب عنه والاعتزاز به .. فهل صنع الإسلام شيئًا لكي يغرس في نفوس الأفراد ويوقد ناره في قلوبهم؟.

نعم .. إن الإسلام لم يكتف بأن عرف كل فرد حقه نظريًا في هذه الحصانة الإنسانية، ولكنه أخذ يهيب به أن

يدافع عن هذا الحق، وطفق يحرضه أشد التحريض على أن يقاتل دونه وأن يضحي بنفسه في سبيله.

ألا فلنسمع صوت نبي الإسلام عليه السلام:

«من قتل دون ماله فهو شهيد ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد، ومن قتل دون مظلمته فهو شهيد»[٥]

هل سمعت أقوى من هذا إلهابًا وتحريضًا؟

بل لنستمع إلى كتاب الإسلام حين ينعي على المستضعفين إخلادهم إلى الذل طمعًا في السلام، ورضاهم الهوان خوفًا من فراق الأوطان.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾

(النساء: ٩٧).

هل سمعت أشد من هذا وعيدًا وتهديدًا؟..

إن الكرامة الإنسانية هي قبل كل شيء سياج من الحرمة والعصمة والصيانة والحصانة تصون صاحبها من أن يهون على الناس أو يضيعوا حقًا من حقوقه أو ينتهكوا حرمة من حرماته.. ذلك هو جانبها السلمي الخارجي الدفاعي، أما

---

(٥) حديث الترمذي: ديات ٢١.

حقيقتها الإِيجابية الانبعاثية، فإِنها تاج من الشـرف والنبل يتقاضـى صاحبه أن ينظر إلى نفسـه نظرة احترام وتكريم، نظـرة يعرف بهـا أن مكانته في هذا العالم مكانة السـيد لا المسـود، لا أعني سـيادة الإِنسـان على الإِنسـان، فالناس في نظر الإِسـلام كلهم سـيد في نفسه، لا سيادة لأحد على غيره، ولا سيادة لغيره عليه.

وإنما هي من جهة سـيادة عالمية يسيطر بها المرء على مختلف الأشياء في البر والبحر والهواء، ألم يسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعًا، ولم يسخره هو لشيء منهـا؟ ثم هـي من جهة أخرى سـيادة ذاتية لـكل فرد فيما بينه وبين الناس، سـيادة تسـوى رأسـه برءوسـهم ومنكبه بمناكبهـم، ومن هـذه السـيادة المزدوجة تتألـف المرتبة الثانيـة من الكرامة الإِنسـانية .. كرامة الحرية والعزة التى تأبى بصاحبها أن يهون على نفسه، وأن يذل لمخلوق غيره كائنًا من كان.

هـذه المرتبة من الكرامـة هي كسـابقتها منحة طبيعية عامة تولد مع الإِنسـان، غير أنه لا يشـعر بها على تمامها، ولا يقـدر حـق قدرهـا إلا المؤمـن الموحد الـذي لا يعرف السـجود لحجر، ولا لشجر ولا لشمس ولا لقمر ولا لملك ولا لبشر، وهكذا يضم كرامة الإِيمان إلى كرامة الإِنسان.

وأخيرًا ترتفع من مستوى الطبيعة ومن مستوى العقيدة إلى مستوى السلوك والسيرة، لتلتقي بمرتبة ثالثة من الكرامة ينشئها المرء إنشاء ويكتسبها اكتسابًا، بما يخطه لنفسه من نهج حميد، وما يحققه بجده وجهده من أهداف رفيعة مستوحيًا مواهبه الإنسانية العليا، مسيطرًا على قواه وغرائزه الدنيا، مسترشدًا بأمر ربه وهداه، محاذرًا من خدع شيطانه وهواه، تلك هي كرامة العمل الصالح المصلح، وإنها لعلى درجات متفاوتة تسير طردًا وعكسًا على نسبة الإتقان والإخلاص في العمل.

هذا الرق:

قد يقول قائل، «إذا كان الإسلام قد كرم الفرد، وهو لبنة في بناء البشرية، فما لنا نراه لم يبت في إلغاء الرق؟

ونحن نعجب لمن يتحدث عن الإسلام والرق كأنما يتحدث عن نظامين قابلين للتعاون والتساند، أو عن طبيعتين قابلتين للاختلاط والامتزاج على حين أن الرق والإسلام ضدان لا يلتقيان إلا كما يلتقى سواد الليل وبياض النهار.

وهل كانت الصيحة الأولى للإسلام إلا صيحة التحرير من ربقة العبودية؟ وهل كانت حملتنا الأولى إلا حملة التطهير من ذل الخضوع، والخنوع لشيء أو لأحد غير الله؟

إن الاسترقاق إهدار للكرامة الإنسانية فكيف يكون من

صنع الإِسلام الذي أعلن كرامة الإِنسان، وإن الاستعباد تبديل للفطرة، فكيف يكون من نظم الإِسلام الذي هو دين الفطرة.

وإن تعجب لشيء فاعجب لأن الذين يلصقون هذا الاتهام بالإِسلام، قوم يشهد تاريخهم بأنهم هم أنشأوا الرق أبيضه وأسوده وأنهم هم أفشوه ونشروا وباءه في العالم من أبشع الطرق وأشنعها، من طريق الخداع والتمويه، ومن طريق الاختلاس والاغتصاب، وأنهم جاوزوا فيه الحدود ولم يكفهم استرقاق الأفراد فعمدوا إلى استرقاق الأمم والشعوب.

فلندع ذكر هذا الماضى القريب الذي يعرفه الجميع.. ولنسأل التاريخ عن نبأ ما قبل الإِسلام.

لقد كانت هناك شرائع في الشرق والغرب، في اليونان وفي الرومان وفي غير اليونان والرومان، فتحت باب الرق على مصراعيه فكان جزاء القاتل أن يكون عبدًا لولي الدمٍ، وكان المدين الذي يعجز عن وفاء دينه ينقلب مملوكا لدائنه، وكان السارق الذي يضبط عنده متاع يصبح رقيقًا لرب المال، ومصداقه في قصة يوسف:

﴿قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾

(يوسف: ٧٥)

وكان السلطان المطلق المخول لرب الأسرة على أعضائها يبيح له أن يقتل منهم من شاء وأن يبيع من شاء، وكان نير العبودية متى وضع على عنق فلا فكاك لها منه أبد الدهر، إلا أن يتفضل السيد بفكها بمحض إرادته.

هكذا كانت أوضاع المجتمع قبل ظهور محرر البشرية، محمد خاتم النبيين ﷺ، وقدوة المصلحين.

فماذا صنع محمد حين جاء بالإسلام؟

إنه أعلنها ثورة غاضبة على هذه الأوضاع كلها .. ولكنها ثورة حكيمة منظمة، كثورته على الخمر وثورته على الربا، وثورته على سائر النظم الفاسدة المزمنة، والرذائل الموروثة المتمكنة.

لقد كانت سوق الرق في تلك المجتمعات مقبرة مفتحة المداخل موصدة المخارج، كان الرق وباء يتساقط فيه الناس تساقط الفراش في النار، وكان الحريق أعظم من أن تطفئه نفخة واحدة، والداء أوسع من أن يعالج بوسيلة مفردة..

فانظر إلى الجهاز الذي أعده نبي الإسلام لإنقاذ هذه العمارة الإنسانية المحترقة المتآكلة، إنه جهاز مركب من ثلاثة أجهزة، نطاق من الحواجز ضربه حول النار حتى لا يندلع لهيبها إلى خارجها، ومفاتيح فتح بها أبواب الدار لتطلق منها كل من استطاع النجاة، وميازيب من الغيث

صبها على من بقي في الدار لتكون النار عليهم بردًا وسلامًا .. ريثما يتيسر لهم الخروج منها .

وسأفسر لك ذلك :

فأما النطاق الذي ضربه الإسلام حول هذه المنطقة المحترقة، فذلك هو الدواء الواقي الذي وقف به سير الداء حتى لا تسري عدواه إلى غير المصابين، ذلك هو القانون الذي منع به استرقاق الأحرار وأمنهم منه، بعد أن كانوا مهددين به من كل جانب .. فاليوم لا الخطف والسلب، ولا البيع والشراء، ولا التغلب في المشاجرات والغارات، ولا تحكم رب الأسرة ولا العجز عن وفاء الدين، ولا السرقة ولا القتل، لم يعد شيء من ذلك كله، منذ ظهر الإسلام، يصلح مبررًا لاستعباد الإنسان، ولم يكتف الإسلام بتحصين الأحرار أنفسهم من خطر الاسترقاق، بل إنه حال بينهم وبين أن يخرج من أصلابهم ذرية تستعبد، وذلك بمنع التزاوج بين الأحرار، والإماء إلا في حالة الاضطرار وخشية العنت وهذا من أوضح الأدلة على أن الإسلام قبل أن يبدأ بالعلاج الشافي من الرق القائم بالفعل، أراد بهذه التشريعات الواقية منع إنشاء فئة جديدة من الأرقاء .

غير أن ها هنا شبهة تجول في الخواطر، ونرى من الأمانة العلمية أن نعرضها، وأن نعالج كشفها وجلاء الحق فيها .

أما الشــبهة فهي أن الإِسلام وإن كان قد سد كل الأبواب التى أشــرنا إليهــا ، والتى كانت تتخذ ذريعة إلى إنشــاء رق جديــد ، إلا أنه قد ترك إلى جانب هذه الأبواب منفذًا صغيرًا لم يغلقه ، ذلك هو حال الحرب الإِسلامية المشروعة ، وهي التى يعتدى فيها الكفار على بلاد الإِسلام[٦] .

أليست الشــريعة قد أباحت للمســلمين في هذه الحال أن يعاملــوا أســرى المحاربين لهم بإِحــدى خطط ثلاث إما بإِطلاق ســراحهم ، وإما باســترقاقهم - ولــو كانوا أحرارا ، وإما بقتلهم ؟

والجواب أن الأمر ليس كما يظنه الناس في هذه الخطط الثــلاث فالواقــع أنهــا في نظر الإِســلام ليســت ســواء في المشــروعية ، فنحن إذا نظرنا في نصــوص القرآن الكريم ، لــم نجد فيــه أثرًا لقتل الأســير ولا اســترقاقه وإنما نجد له فيه مصيرًا واحدًا كريمًا ، وهو إطلاق سراحه ببدل أو بغير بدل .

﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾

(محمد : ٤)

---

(٦) وتكون الحرب في الإسلام مشروعة كذلك لتحطيم الطاغوت وإقامة شرع الله في الأرض لا لإكراه الناس علي الإسلام قال الله تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ وقال سبحانه ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾.

كما أننا إذا تتبعنا سنة الرسول الرحيم لا نجد فيها أنه أذن قط بقتل الأسير إلا في حالة شاذة نادرة كان الأسير فيها معروفًا بخطورته وشدة نكايته بالمسلمين، فهو ليس قاعدة عامة وإنما هو استثناء يطبق على الشاذين الخطرين، وهذا هو ما يعرف في لغة العصر باسم عقوبة مجرمي الحرب..

بقي الاسترقاق، وواضح أنه يلي القتل في القسوة والشناعة وأن الإسلام ينظر إليه كنظرته إلى القتل، كما أن الحرية في نظره شقيقة الحياة، ألا ترى كيف جعل كفارة القتل الخطأ تحرير رقبة ؟ إن هذا هو تعويض الحياة بالحياة، فإن رفع الرقيق إلى مستوى الحرية يعد إدراجًا له في زمرة الأحياء .. بعد أن كان محسوبًا في عداد الأموات.

وهكذا يتبين لنا أنه ليس في روح التشريع الإسلامي ولا في نصوصه، ما يشجع المسلمين على استرقاق أسراهم، أو يجعله في نظرهم سواء هو والمن على هؤلاء الأسرى بالحرية، فإن لجأ الإسلام يومًا إلى استرقاق الأسير، فإنما يكون ذلك منه نزولاً على حكم الضرورة، اتقاء لخطره وكسرًا لشوكته وشوكة قومه على أنه لا يجعل ذلك مصيره النهائي، وإنما يأخذه إجراء مؤقتًا وخطوة انتقالية إلى الحل الصحيح الذي يرضاه، ويلح في المطالبة بتحقيقه .. ألا وهو التحرير الكامل.

وهكذا ينساق بنا البحث إلى الشطر الثانى من الوسائل التى أعدها الإسلام لمكافحة الرق، وأعنى بها تلك الأبواب الواسعة الكثيرة التى فتحها الإسلام لإخراج الأرقاء إلى فضاء الحرية.

ولعل أول مفتاح لهذه الأبواب كان هو مفتاح القلوب .. فقد أخذ الإسلام يحرض الناس على عتق الرقاب ويرغبهم فيها بمختلف الوسائل.

﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ﴾

(البلد: ١١ - ١٣).

«من أعتق رقبة أعتق الله بكل عضو منها عضوًا من أعضائه من النار»[٧].

ومفتاح آخر هو مفتاح خزائن الدولة، إذ جعل فيها سهمًا مقررًا في كل عام لافتداء الأسرى وتحرير المستعبدين:

﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾

(التوبة: ٦٠)

ومفتاح ثالث: هو مفتاح قانون الكفارات، وهو القانون الذي يجعل عتق الرقاب فريضة لازمة لمحو خطيئة من

(٧) متفق عليه.

الخطايـا كالحنث فـي اليمين والفطر فـي رمضان، والقتل الخطـأ، وغير ذلك، ومن أهم هذه الأنواع: كفارة الإسـاءة التـي تقع من السـيد في حق العبد نفسـه، وفي ذلك يقول رسول الرحمة:

«من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته أن يعتقه»(٨)

هـذا جـزاء اللطمـة أو الضربـة، أمـا الجرح أو تشـويه الجسـم، فـإن حكمه عند أكثر الأئمة أنـه يصير العبد حرًا بمجـرد إصابته، فينزع من ملك السـيد قهرًا عنه، وكذلك إذا كلفه سـيده أعمالاً فوق طاقته وتكرر منه ذلك، وهكذا يقودنـا الحديـث إلى الشـطر الثالـث والأخير مـن العلاج الإسلامي الرحيم.

لقـد رأينا أبوابًا فتحت أمام الحرية، ورأينا أبوابًا أغلقت دون الـرق، بيـن هذيـن الطرفيـن تـرى طائفة مـن الأرقاء يتوجهون نحـو باب الخروج ولكنهم لـم يصلوا إليه بعد، إنهـم هنالـك ينتظرون دورهم في استنشـاق هـواء الحرية المطلـق، فهـل صنع الإسـلام شـيئًا لهـذه الفئة فـي فترة الانتظار؟؟

نعـم لقد فتح لهم فيهـا نوافذ للتهويـة، وأعد لهم فيها وسائل للترفيه تجعلهم في هذه الفترة يحيون حياة الإنسان،

---

(٨) مسلم إيمان ٢٩، ٣٠.

ولا يشعرون بتلك الفوارق الظالمة بين الطبقات، ذلك أنه أوجب على المخدومين أن يرتفعوا بأسلوب المعيشة لخادمهم إلى المستوى الذي يعيشون فيه هم أنفسهم.

هكذا يقول المبعوث رحمة للعالمين:

«إنهم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم، فأطعموهم مما تأكلون، واكسوهم مما تلبسون، ولا تكلفوهم من الأعمال ما لا يطيقون، فإن كلفتموهم فأعينوهم»(٩)

هذا هو موقف الإسلام من الرق:

١- منع لإنشائه وابتدائه.

٢- عمل بكل الوسائل على تصفية الموجود منه وإنهائه.

٣- عطف سابغ عليه في أثناء محنته وبليته.

فهل من منصف يقولها معي:

أما والله لعبد في ظل الإسلام خير من كثير من الأحرار في كل نظام..!

* * *

(٩) حديث: البخاري: إيمان ٢٢.

الإسلام.. والسلام

إذا كان الإِسلام قد دعا إلى السلام وتدعيم العلاقات الطيبة مع العالم أجمع، فلم كانت حروبه في المرحلة الأولى من الدعوة وما تبعها؟

إنه ليس أخطر على الباحث في الشريعة الإِسلامية من الوقوف عند أطرافها المجملة؛ لأنه بذلك يدع نصوصها تتصادم وتتخاصم حتى إذا سعى في الصلح بينها برأيه، لم يأمن على نفسه الهوى والزلل في تأويلها، وهذا شأن اتباع المتشابه الذي نهي الله عنه، وإنما يستبين موقف الإِسلام واضحًا جليًا في هذا الضرب من المسائل، حيث يلتمس حلها في تلك الآيات الجامعات، التى تلتقي فيها الأطراف على قدر، والتى يبرز بها التشريع الإِسلامي في وحدة لا تنقسم وعروة لا تنفصم، تلك هي الآيات المحكمات وهن أم الكتاب.

هذا الطراز من التشريع الثلاثى مفتاحه إذًا في وسطه لا في طرفيه، وروحه في قلبه لا في جناحيه، وسنريك الآن أين الأطراف، وأين الأوساط في موضوع حديثنا، فانظر هاهنا، في أقصى الجانب الأيمن!

أليس يبرز الإِسلام أمامك في شعاب «مكة» ووديانها رافعًا راية السلام، باسطًا جناحى رأفة ورحمة يفيء إلى ظلهما الوارف، أنصاره وأعداؤه على السواء؟ ألست تسمع

كتاب الإسلام وهو يحدد مهمة حامله؟ فإذا هي هداية وإرشاد، وموعظة وتذكير، وإنذار وتبشير، ويجمع ذلك كله في كلمة واحدة: «بلاغ».

﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ ﴾

(النحل: ١٢٥)

﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ ﴾

(القصص: ٥٦).

﴿ فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ (٢١) لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ﴾

(الغاشية ٢١ - ٢٢)

وزد ما شئت من سماحة وكرم، لا ترى فيهما شائبة لعنف ولا لانتقام، ولا أثارة من مقاومة أو اصطدام..، الإسلام إذاً هو رسالة السلام، ولكن هلم إلى أقصى الطرف الآخر!

ألست تسمع من قبل «المدينة» صيحات النفير إلى النزال وقعقعة السلاح في ميادين القتال؟ أولست ترى هنالك أشلاء تتناثر، وأطرافا تتطاير، وأعناقا تدق، ودماء تسفك، وأرواحا تزهق، وأسرى يشد وثاقهم، وشهداء يُهنأون بنبيل تضحياتهم، ويبشرون بعظيم أجورهم؟

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ ﴾

(الأنفال ٦٥).

الحــرب إذا شــريعة إســلامية، وفريضــة محمديــة؛ بل هــي أعظم مــن ذلك، إنها عنصر أصيل مــن عناصر الإِيمان الصادق.

يــا الله! مــا أبعد الشــقة، وأشــد المفارقة! أمن الســلام الأبيــض الناصع الرحيــم المتواضــع، إلى الثــورة الحمراء القانية والحرب الفاتكة المهلكة؟

تلك هي المشــكلة التــى فتحت باب التعليــل والتأويل أمام الذين يأخذون الأمور من أطرافها.. وما أكثر الفروض، وما أبعد تشعب الظنون، حين يتحرر المرء من قيود العيان والبرهــان! وما أشــد إغراء الهــوى لمن وقف فــي محراب العلــم وهــو لما يفيق مــن نشــوة نزعاته وعصبياتــه، ولما يتجرد من سلطان عقائده وعوائده! هنالك يطير خلف كل ســانحة وبارحة من الرأي، فيمسك بأيها كان أحب لقلبه، وأكثر تملقًا لشعور قومه، ثم يرسلها في الناس باسم العلم وفلسفة التاريخ.

وما هي من العلم ولا من التاريخ في شيء!

ذلك مثل فريق من كتاب الغرب حين تفرقت بهم السبل في معالجتهم لهذه الشخصية.

أكان محمــد ﷺ متعطشــا للدماء بفطرتــه، ولــم يمنعه مــن ســفكها إذ كان في «مكــة» إلا أنه كان مــن الأعوان في قلــة ولــم يكــن أعوانه فــي عامة الأمــر يومئــذ إلا الضعفاء

والمستضعفين، فكان تسامحه حينذاك ضرورة ألجأه إليها العجز وفقد النصير، حتى إذا واتته الفرصة في موطنه الجديد اهتبلها وغمس يده في الدماء إشباعًا لغريزة الثأر والتشفي؟

أم كان هذا الموقف الحربى متحركًا بحركة قسرية لا يستمليها من قرارة قلبه، ولكنه دفع إليها دفعاً، وكان فيها تابعًا لا متبوعًا؟ ذلك أنه وجد نفسه في قوم عاشوا جل دهرهم على الغارات والحروب، فما كان منه إلا أن نزل على إرادتهم وجرى في تيارهم.

لقد قلبوا وجوه الرأي وذهبوا فيها كل مذهب، ولكنهم حيثما ذهبوا لم يجدوا إلا برقًا خلبًا، وسرابًا خادعًا.

نعم فقد اصطدموا بحقائق التاريخ في كل مسلك سلكوه، وضلوا ضلالًا بعيدًا في كل شيء ضربوه.

ذلك أن الذين درسوا منهم نفسية محمد ﷺ في مختلف أطواره: في شبابه وكهولته في بأسائه ونعمائه، حتى في أوج سلطانه، شهدوا بأن محمدًا لم يكن يومًا ما، فظ الطبع، ولا غليظ القلب، وفي الوقت نفسه بأنه لم يكن يومًا ما إمعة في رأيه، ولا رخوًا في حكمه، وأنه لم يعرف عن أمة في التاريخ أنها كانت أطوع لملك أو قائد أو زعيم من قوم محمد ﷺ له: لا يمليها سوط ولا صولجان، ولكن يبعثها الحب والمهابة والطاعة والثقة والإيمان وكذلك شهد

التاريخ أن خروج محمد من القرية الظالمة إلى دار الأنصار، لم يكن سببًا في تحول سياسته مع قريش من اللطف إلى العنف، ومن المسالمة إلى المقاومة، على الرغم من وضوح حقه في هذا التحول وتمكنه منه، فقد بايعه الأنصار من قبل هجرته إليهم، وأعطوه المواثيق الغلاظ على مؤازرته ونصرته، فلو أنه فكر في الثأر لرمى بهم في وجه عدوه من أول يوم، ولكانوا أطوع له من بنانه، ولكنه لبث فيهم زهاء عامين شغل في أثنائهما شغلًا مستغرقًا بشعائر دينه، وشئون قومه، وكان كل شيء في سيرته إذ ذاك يدل على أنه قد تناسى الماضي بحسناته وسيئاته، وأنه قد اطمأن الاطمئنان كله إلى حياته الجديدة، وجملة القول: إن خوضه غمار الحرب لأول مرة كان حادثًا فجائيًا حقًا، لم تمهد له مقدمات من حياته بالمدينة، كما لم تمهد له مقدمات من ميوله ونزعاته، ولا من شخصيته ومنزلته في قومه.

هكذا فشل كتاب الغرب في محاولتهم تعليل هذا الموقف الجديد، بأسباب وعوامل التمسوها في المعسكر الإسلامي، وكان الإنصاف العلمي يقضي عليهم أن يلتمسوها بعد ذلك في الجانب الآخر فلم يفعلوا، ولو أنهم طرقوا الباب لوجدوا من ورائه ضالتهم، ولقبضوا من فورهم على جريمة الحرب في مهدها ومولدها.

فالواقع أن أول حرب في الإسلام لم يوقدها المسلمون، بل كانوا وقودها، وأن أعداء الإسلام هم الذين أشعلوا نارها، وأطاروا شررها، لا أقول إنهم كانوا سببها البعيد فحسب، بل كانوا هم معلنيها عمليًا، والمتسببين فيها من طريق مباشر، وما كان من المسلمين إلا أنهم قبلوا التحدي، وردوا التعدي.

إن قريشا غيرت أسلوبها - بعد الهجرة - في معاملة المسلمين المستوطنين في مكة، خلا لها الجو فوالت التنكيل بهم، وما زال طغيانها عليهم يزداد يوما بعد يوم، حتى عيل صبرهم، وطفح كيل بلائهم، فهنالك أخذوا يجأرون إلى الله مستغيثين، في صرخات عالية تسمع دويها في القرآن الكريم.. وهناك فقط أمر الله المهاجرين والأنصار أن يخفوا لإغاثتهم، فكان ذلك هو أول تحريض على القتال:

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾

(النساء: ٧٥)

لم تكن الغزوة الأولى إذًا حملة تحرش وبدء بالعدوان، كما زعم الجاهلون، فذلك ذنب خليق أن يعتذر منه لو

وقع، ولم تكن دفعة ثأر وانتقام لجروح قديمة قد اندملت، أو محاولة تعويض واسترداد لحقوق استولى عليها الأعداء من ديار المهاجرين وأموالهم، كما قد يظن بادئ الرأي، ولو فعلوا لكان حقًا لهم تقره كافة الشرائع السماوية والوضعية، ولكنه حق مشروع فحسب، وكان من السائغ التنازل عنه، كلا، لم يكن هذا ولا ذاك، ولكنها كانت عملًا أعلى من ذلك كله وأسمى، لقد كانت قيامًا بواجب منزه القصد مبرأ الغاية عن كل الأغراض والمنافع العاجلة، واجب نجدة المظلوم، وإغاثة الملهوف، فهي إذًا صفحة فخار جديرة أن تسجل في أعلى مكان من ديوان التضحية والإيثار، وليست عملًا عاديًا يتطلب التبرير أو الاعتذار!

والآن وقد صححنا الوضع في هذا الحادث التاريخى الذي ضلت به أفهام، وزلت فيه أقلام، نعود إلى سياق الحديث عن المبادئ العامة فنقول: إن أمثال هذه الضلالات والزلات في تحديد موقف الإسلام من الحروب، مردها ـ كما أسلفنا ـ إلى النظرات الجزئية الجانبية في نصوص التشريع، وإلى تلك الوقفات المترددة عند أطرافها المتباعدة، ولا ريب في أن المقارنة بين الدعوة إلى السلام في السور المكية، وبين التحريض على القتال في آيات من التشريع المدني، وهو آخر دورى التشريع الإسلامي، كانت مثار شبهة وفتنة لكثير من النفوس المريضة، فقد خيل إليها أن شريعة القتال جاءت

قاعدة عامة ختمت بها الدعوة المحمدية، وأنها تمثل انقلابًا نهائيًا محيت به آية السلام في الإسلام، وإنه لمن العجيب والمؤسف حقًا أن أكثر الكتاب الغربيين لايزالون إلى يومنا هذا يرددون صدى هذا الضلال القديم، حتى إن بعض كبار المستشرقين، الذين عاشوا بيننا ودرسوا لغتنا، وتولوا إدارات فنية في دورنا العربية، كتبوا في الموسوعات الأوروبية الحديثة فصولاً مطولة عن الإسلام، قرروا فيها هذه النظرية الخاطئة، وكانت زلتهم كغيرهم أنهم نظروا في التشريع القرآنى إلى طرفي خطيه المنفرجين، ولم يحوموا حول رأس الزاوية التى يلتقى عندها الخطان.

وها نحن أولاً ندعو الباحثين المنصفين منهم أن ينتقلوا معنا من هذه الأطراف إلى الحد الوسط، الذي كان وجوده في القرآن حكمة بالغة، وحجة دامغة، تنقطع عند نصوصها كل الفروض والظنون، وتنهزم أمامها كل التعليلات والتأويلات، فإنه متى ظهر النص بطل القياس، ومتى طلع النهار زال كل لبس والتباس.

أجل: إن القرآن الحكيم لم يكتف في تعيين مراده بأنه كان يدعو إلى السلم في ظروف وملابسات عادية توائمه، ويأمر بالقتال في ظروف وملابسات استثنائية تحتمه، ولو أن القرآن نزل لأهل عصره وحدهم لكفاهم ذلك، إذ كان واقع الحال في كلا المقامين تفسيرًا شافيًا لموقع كل تشريع، وتحديدًا

كافيًا لمجال تطبيقه، أما وهو دستور الإنسانية الخالد فقد كان من الحكمة السامية ألا يعتمد في تحديد مقاصده على ظروف واقعية في عصر نزوله، لا تلبث أن تنسى إذا طال العهد بها، وكان من الرحمة الشاملة أن يسجل أهدافه بنفسه في نص صريح يضع كل تشريع في موضعه، ويكون مرجعًا للناس على مر العصور والأجيال، ولا سيما في قضية الأمن العالمى التى يرتبط بها مصير البشرية جمعاء.

ولقد قام القرآن بهذه المهمة على أدق وجه في آيات جامعات استبان بها أن الحرب ليست هي القاعدة، إنما هي استثناء من القاعدة، وأنها لا يخلقها الإسلام، ولكن يخلقها أعداؤه بعدوانهم المسلح على دعوته السلمية، إنها ضرورة تقدر بقدر أسبابها، وعقوبة تزول بزوال الجريمة التى استوجبتها، وبالجملة أنها محدودة بحدود الدفاع المشروع لا تستقدم عنه خطوة، ولا تستأخر خطوة:

﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾

(البقرة: ١٩٠)

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾

(البقرة: ١٩٢).

﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا﴾

(الأنفال: ٦١)

﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾

(النساء: ٩٠)

﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا﴾ (النساء: ٩١)

لقد أبطل الإسلام حروب العصبية الدينية:

﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ﴾ (البقرة ٢٥٦)

﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾

(يونس: ٩٩).

ومنع حروب التشفي والانتقام للإساءات الأدبية:

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ﴾

(المائدة: ٢).

وأنكر حروب التخريب والتدمير، وحروب الفتح والتوسع والاستيلاء:.

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾

(القصص: ٨٣)

واستنكر حروب التنافس بين الأمم في مجال الضخامة والفخامة:

﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ﴾

(النحل: ٩٢)

فهل كان يراد منه فوق ذلك كله أن يمحو حق الدفاع عن النفس والحليف، وواجب الذود عن المستضعف والمظلوم؟ كلا: إن الإسلام دين إحسان، ولكنه إحسان لا يناقض العدل، ولا يشجع الإجرام، ولا يدع الحق مكبل اليدين إذا أراد الباطل أن يفتك به، إنه ذو رحمة واسعة، ولكنه لا يرد بأسه عن القوم المجرمين، فهو دين عدل وإحسان معاً، وبذلك فضل الشرائع السابقة التى فرقت بينهما، ولقد علمنا كيف ينزل بالحكمة كلا المبدأين في منزلته، وحذرنا أن نضع واحدًا منهما في موضع صاحبه.

فوضع الندى في موضع السيف بالعلا
مُضِرٌّ كوضع السيف في موضع الندى[(١٠)]

***

(١٠) البيت للشاعر المتنبي.

القانون الدولى.. والإسلام

يكاد يتفق علماء التشريع في الغرب، ويتابعهم كثير من الشرقيين، على أن فكرة «القانون الدولى العام» فكرة حديثة العهد، ابتدعتها أوروبا في العصر الأخير.

هذا الحكم صحيح في الجملة، ويلوح لنا أنه غير قابل للجدل والمناقشة مادمنا نبعد بموضوعه عن محيط التاريخ الإسلامي؛ فالنظام الدولى في الحقيقة لم يكن معروفًا خارج هذا المحيط، لا في العصر القديم اليونانى والروماني، ولا في العصور الدينية الأولى في اليهودية والمسيحية.

أما العصور الدينية المذكورة فمن الميسور أن نتبين فيها هذا الفراغ، وأن ندرك أسبابه؛ ذلك أنه حين تأسيس هاتين الديانتين لم يكن أمامهما علاقات دولية تتطلب هذا التشريع.

وأما العصور اليونانية والرومانية القديمة، فإن خلوها من هذا التشريع مرده إلى أسباب تختلف عن ذلك كل الاختلاف، فليست المسألة مسألة انقطاع الصلة بين هاتين الدولتين وبين العالم الخارجي؛ إذ أن تلك العلاقات الخارجية لم تعوز هاتين الدولتين يومًا ما، ولكن نظرتهما نفسهما إلى الحياة لم تكن لتسمح لهما بوضع تشريع كهذا.

ولو أننا بحثنا فكرة القانون الدولى في أوروبا في العصور الحديثة، ما وجدنا كبير فرق بينها وبين تلك العصور الأولي، على رغم التقدم الفعلى في تدوين قواعد هذا التشريع العام: ذلك أن فكرة تساوى الناس أمام القانون ـ تلك الفكرة التى طالما طالبت بها الشعوب وتشدقت بها الحكومات ـ لم تتخذ بعد في نظر الغربيين صبغة القانون العام الشامل، ألم يقل «استوارت ميل»[١١] باستحالة تطبيق القانون على الشعوب الهمجية أو لم يحدد «لوريمير» على وجه الأرض مناطق ثلاثًا تخضع كل منها لقانون مختلف؟ فالعالم المتمدين يجب أن يتمتع في نظره بحقوق سياسية كاملة، والعالم نصف المتمدين يكفي أن يتمتع بحقوق سياسية جزئية، بينما الشعوب غير المتحضرة ليس لها إلا حقوق عرفية لا تحمل إلزامًا قانونيًا، وجاء ميثاق «عصبة الأمم» بعد الحرب العالمية الأولي، فأقر هذا التقسيم الثلاثى وأكسبه سلطة القانون.

وأخيرًا شكلت «جمعية الأمم المتحدة» بعد الحرب العالمية الثانية، فماذا رأينا؟ أليس روح التفريق وعدم المساواة لايزال مسيطرًا فيها على عقول السادة الذين يتحكمون في مصير الإنسانية إذا أردنا أن نظفر بتشريع دولى عام

(١١) فيلسوف واقتصادي إنجليزي (١٨٠٦ - ١٨٧٣) له كتاب في المنطق الاستدلالي والاستنتاجي.

يصطبغ بالصبغة العالمية الحقيقية، فعلينا أن نرجع بذاكرتنا إلى عصر رسول الإسلام.

كلنا نعرف أن محمداً عليه الصلاة والسلام لبث زهاء عشر سنين في اتصال دائم بأمم وديانات مختلفة، معادية طورًا ومسالمة طورًا وطبيعى أن هذه الظروف الخاصة التى جعلت للإسلام سلطانًا زمنيًا وحكمًا عالميًا ـ إلى جانب كونه عقيدة روحية، ومبدأ أخلاقيًا ـ كانت تتقاضاه أن يضع تشريعًا لقانون السلم والحرب بين الأمم، وقد كانت إجابته لهذه الحاجة الملحة شافية لغلة المشرعين مرضية للضمائر السليمة لدى الحكماء وذوى الخلق الكريم.

وليس لمكابر أن يدعى أن الإسلام إنما حمل السلاح لفرض عقيدته، وهذا هو مبدأه:

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾

(البقرة: ٢٥٦)

وليس لهذا المكابر أن يدعى أن فكرة الفتح والتوسع كانت مسيطرة على المسلمين، وهذا هو مبدأه أيضاً:

﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ﴾

(القصص: ٨٣)

إن الحرب المشروعة في الإسلام هي «الحرب الدفاعية».

ويجمل بنا أن نشير إلى أن كلمة الدفاع ينطوي تحتها نوعان قد أشار القرآن إلى كليهما:

١ ـ الدفاع عن النفس. وفيه يقول الكتاب المجيد:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ۗ﴾

(الحج: ٣٩، ٤٠)

٢ ـ الإغاثة الواجبة لشعب مسلم أو حليف عاجز عن الدفاع عن نفسه:

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾

(النساء: ٧٥)

من هنا نرى أن الحروب في نظر الإسلام شر لا يلجأ إليه إلا المضطر، فلأن ينتهي المسلمون بالمفاوضة إلى صلح مجحف بشيء من حقوقهم، ولكنه في الوقت نفسه يحقن الدماء، خير من انتصار باهر للحق تزهق فيه الأرواح.

وإن لنا في موقف الرسول في غزوة الحديبية لنموذجًا حسنًا لهذا الروح العالى في التسامح والصفح، حرصًا على السلام من جانب الطرف الأقوي، فهو لم يكتف بالرجوع مع جيشه من حيث أتوا، وبتأجيل ما كانوا أجمعوا على أدائه في ذلك العام من المناسك «زيارة الأماكن المقدسة»، ولم يكتف بأن رضى بتجريد اسمه في نصوص الهدنة من كل لقب تشريفي هو أهله، ولكنه فوق ذلك كله قبل مختارًا مقترحات الهدنة التى لا يعامل فيها الطرفان على قدم المساواة، بل تخول الأعداء حقوقًا لا تخولها المسلمين.

ولم تكن لترجح كفة الحرب في نظر قائدهم الأعلي، ولم تكن لتعدل به عن طريق السلام الذي يحفظ به دماء الناس وأرواحهم، ولنستمع له حين يقول مصمما في جواب السائلين له عن السر في هذا العدول عن مكة: «والله لا تدعونى قريش إلى خطة يسألوننى فيها صلة الرحم، إلا أعطيتهم إياها»، [السيرة النبوية لابن هشام».

إن القرآن حين أباح الحرب الدفاعية المشروعة قد ميز تمييزًا واضحًا بين المحاربين وغير المحاربين، فأمر بألا يقاتل إلا المقاتل، ولابد أن نفهم من كلمة المقاتلين: أنهم الذين يحضرون ميدان القتال بالفعل، ويستخدمون فيه قوتهم العدوانية.

ولقد استرشد التشريع الإسلامي بتعالم النبوة في هذا الشأن فحدد هذا الشرط على وجه يزيل كل لبس، ويكفل

إبعاد شرور الحرب عن الضعفاء، ويجنب المدنيين كل ويلاتها، فالأطفال، والشيوخ، والنساء، والمرضي، والمعتوهون، بل حتى الفلاحون في حرثهم، والرهبان في معابدهم، كل أولئك معصومون بحصانة القانون من أخطار الحروب.

والذي يلفت نظرنا بوجه خاص في هذا المقام هو حرص الإسلام - لا على حماية هؤلاء الضعفاء من الأضرار المادية فحسب - بل على حمايتهم أيضًا من التعرض لكل ألم نفسي لأن الإسلام يهدف إلى إيجاد العلاقات الطيبة مع أبناء البشرية جميعًا.

ومن القواعد الأساسية للحرب في نظرة الإسلام أنه كان يأبى فرض حصار يرمى إلى حبس الطعام عن مدن الأعداء ويوجب حصر العمليات الحربية في الأهداف العسكرية، بالنهي عن استعمال الأسلحة البعيدة المدي، وخاصة كل وسيلة عامة للتدمير كالتغريق والتحريق.

ويستنكر تلك العادة الهمجية التى يشيع استعمالها في أثناء الحروب، ألا وهي تعذيب الأعداء ومعاملتهم بالقسوة والخشونة، ثم إننا نجد تعالم الرسول التى كان يوجهها إلى قواد حملاته الحربية زاخرة بنصائحه لهم على التزام النظام وحسن السلوك في قتالهم، ومن بين هذه النصائح تحذيره المتكرر لهم من السلب، والنهب، والقتل غدرًا، والتمثيل بجثث القتلي.

ولقد بلغت به دقة تطبيقه لحكم القرآن الذي يأمر بالعفو عن الأعداء متى انتهوا عن عدوانهم، أن نهي عن تعقب من يفر منهم من الحرب، فما بالك بمن يلقي سلاحه ويتقدم إلينا في صراحة بعبارات السلام والاستسلام؟ إن القرآن ليحرم علينا إيذاؤه تحريمًا قاطعًا، حتى لو كان ذلك بحجة الشك في صدق إيمانه:

﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾

[النساء: ٩٤]

تلك كلها أدلة ملموسة على أن الإسلام لا يرمى قط إلى القضاء على أعدائه، ولا إلى الاستيلاء عليهم بالقهر، ولكن إلى تجنب خطرهم، فمتى تحقق هذا الغرض لم يبق للصراع في نظره مبرر؛ لأن هدفه إيجاد العلاقات العامة مع الناس قاطبة.

العلاقات السياسية:

رأينا كيف نظم الإسلام حالة الحرب.. فلننظر الآن، كيف نظم علائق السلم، وأول ما يعنينا من ذلك طريقة معاملته لمبعوثى أعدائه، وحاملى رسائلهم، وممثليهم السياسيين وهي معاملة يحق لنا أن نقول فيها إنها سديدة مستقيمة فالإسلام فوق ما يكفله لهم من صيانة وأمن

على الأرواح، يمنحهم نوعاً من الحصانة الاجتماعية التى تخولهم حرية العودة إلى أوطانهم متى شاءوا، ولا يدع سبيلاً إلى حجزهم في بلادنا بحجة أنهم من قوم عدو لنا.

يلى ذلك طريقته في الاستماع لهؤلاء المتفاوضين، وحسن استعداده للتفاهم أو التعاقد معهم، فالقرآن يحض الرسول على قبول مبدأ الصلح متى وجد من العدو ميلا إليه:

﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾

(الأنفال: ٦١)

أما شرائط الصلح وطرائقه، فقد رأينا بصدد هدنة الحديبية، كيف أن روح المسالمة التى كانت تعمر قلب رسول الإسلام، قد جعلته يضحى بكثير من التفاصيل المتعلقة بألقابه الأدبية وبالسمعة الحربية لجيشه وببعض الحقوق الفردية لأتباعه على أنه ليس معنى ذلك أنه يوجب قبول كل اقتراح من جانب الأعداء؛ مهما كان شاذًا، أو ضارًا بحقوق الأمة والأجيال المقبلة، فقد رأينا هذا الرسول الرحيم نفسه، حين عرض عليه مسيلمة الكذاب تقسيم «الأرض» بينه وبينه، يرفض ذلك رفضاً صارماً، ويجيبه بتلك الجملة الحكيمة التى يقتبسها من القرآن:

﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾

(الأعراف: ١٢٨)

ولعل أبسـط العقود السياسية هو التصريح الذي يصدر من جانب واحد، ولا يلـزم إلا الطرف الذي أصدره كإعلان دولة ما: أنها تلتزم الأمن والحماية لدولة أخرى وأننا لنجد من هذا النوع مثالاً واضحًا في ذلك العهد الذي أعطاه النبي لأهل سـوريا ومـن معهم في أثناء غزوة تبـوك، وضمن لهم فيـه حرية انتقالهم وأمـن قوافلهم البريـة والبحرية وحرية اسـتعمالهم للطرق ومجارى المياه، على شـريطة واحدة، وهي ألا يثيروا على المسلمين شغبًا.

ولكن المعاهدة بالمعنى الصحيح تتطلب اتفاقًا وتبادلاً للمنافع يقبله طرفا العقد جميعًا، وإن أقل ما يتحقق فيه هذا النوع من العهود، هـو التعاقد الذي لا يتضمن إلا التزامات سـلبية تنحصـر في امتنـاع كلا الطرفين عـن كل فعل ضار بالآخر، وقد نقل لنا المؤرخون أمثلة لمواثيق من هذا النوع عقدهـا النبي والتزم فيها الطرفان - إما لمدة غير محصورة، وإمـا لأجل معلـوم - ألا يهاجم أحدهما الآخـر، ولا يحالف عدوًا له، ولا يسـاعد معتديًا عليـه، فمن هذا القبيل ميثاقه إلـى الهدنة التى عقدها مع قريش في السـنة السادسـة من الهجرة لمدة عشرة أعوام.

علـى أن الحقـوق والواجبـات المتبادلـة إنمـا تبرز في أكمـل مظاهرها في عهود الحلف، ومـن أمثلة هذه العهود في حياة الرسـول، تانك المحالفتان اللتان مهد لهما صلح

الحديبية، حيث خول كل من الفريقين أن يختار حليفًا له من بين القبائل العربيــة فاختارت «خزاعة» أن تحالف محمدًا، واختارت «بنوبكر» أن تحالف قريشًــا، ولقد كان من نتائج تطبيــق هاتين المحالفتين أن نهض المســلمون في الســنة الثامنة لنجــدة خزاعة حين نقضت قريــش عهدها بإزائها، وينبغي أن يلاحظ أن هذا النقض لم يكن بقتال مباشر موجه علانية لخزاعة، وإنما كان معاونة ســرية بالمال والســلاح لبني بكر عليها، ومن هنا تعرف وجهة نظر الإسلام في هذه النقطة القانونية.

وهــذا مثال طريف لنوع من المواثيق لا نجده بعد إلا في العصر الحديث: ذلك هو العهد الذي أعطاه النبي لنصارى نجران باليمن يلتزم لهم حرية عقيدتهم ماداموا مسالمين، ويلتزمون له بمســاعدات مادية، وهو وإن كان عهدًا محليًا أكثــر منه عهــدًا دوليًــا، إلا أن فيه شــرطًا يذكرنــا بميثاق الإعــارة والتأجير الذي عقدته الولايات المتحدة الأمريكية مــع بريطانيــا، لتمويــن الجيــوش الإنجليزية فــي الحرب العالمية الثانية.

وبعد فإن من المقــرر المعترف به عند الجميع أنه يجب على طرفي العقد - مهما كان نوع المعاهدة التى بينهما - أن يحافظا بدقة على تنفيذ كل شروط الميثاق بنصها وروحها.

غير أن هذا الالتزام يأخذ في نصوص القرآن طابعًا خاصًا مــن التشــديد ومن القدســية يجعلــه فرضًا دينيًــا بالمعنى

الحقيقـي، فالميثاق الذي يعقده المسـلم لا يرتبط به أمام الناس فحسـب، بل إنـه ينعقد في الوقت نفسـه بينه وبين الله تعالى، إذ يجعل المسـلم ربه شهيدًا وكفيلاً على عقوده والتزاماتـه، ومـن هنا يصبح احتـرام هذه الالتزامـات أمرًا متغلغـلاً فـي النفوس، متصـلاً أوثق اتصال بعقـد الإيمان، بحيث لا يبقى لقوة في الأرض أن تحلله منه، سواء في ذلك دوافـع المنفعة أو طلب النفـوذ، أو زيادة الرخاء أو المجال الحيوي، أو التوسـع الاقتصـادي، أو التوازن السياسـي أو غير ذلك، وإلى هذا كله يشير القرآن:

﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ﴾

(النحل: ٩١ ـ ٩٢)

فإذا نحـن رجعنا إلى السـنة النبوية وجدناهـا قد بلغت مـن الدقة في تطبيقها لهذه التعليمات القرآنية مبلغًا ينتزع الاحترام من النفوس.

إن هنـاك ما هو أعظم دلالة على قدسـية العهود والمواثيق في نظر رسـول الإسـلام، فلم يكن حرصه على الوفاء بعهوده

أشـد منه على وفاء أتباعه بعهودهم الشـخصية، مهما شقت علـى ضميـر المؤمنين، ومن أطرف الأمثلة في ذلك وأشـدها غرابـة حادثـة حذيفـة وأبيه، فقد كانـا قطعا على نفسـيهما لبعض الأعداء عهدًا بدون استئذان الرسول ـ ألا يقاتلاهم فلما جاء وقت القتال اسـتفتيا في ذلك رسـول الله، فما كان جوابه إلا أن قال: «انصرفا ففيا لهم بعهدهم ونستعين الله عليهم».

والنقـض لا يصـح أن يحـدث اعتباطًا وابتـكارًا من قبل المسـلمين تحـت تأثيـر الأغـراض والمنافـع، أو بباعث الهـوى والعاطفة، بل لابد أن يكون مسـبوقًا باسـتفزاز من قبل الخصم وبأمارات تدل على أنه ينوى خيانة العهد ـ كما لا يصـح أن يكـون قطع العلائـق عمليًا فقط وبدون سـابق إنذار، وإلا لكان غسـلا للخيانة بالخيانة، بل لابد أن يكون نبذًا للمعاهدة صريحًـا واضحًا، وأن يصل إلى علم الخصم في الوقت المناسـب ليكون على بينة من نيتنا نحوه، حتى نكون وإياه سواء في ذلك وهذا هو الإسلام.

إن التشـريع الدولى في الإسـلام لا يكتفي بأن يستوحى في كل خطوة من خطواته روح العدالة والمساواة بين الناس أمام القانون، بل أنه يسـتمد من ينابيع أشـد عمقًا من ذلك كله، يستمد من منابع الإيمان الصحيح، والخلق الكامل.

ونسـتطيع أن نقـول ـ ووثائق التاريخ بيـن أيدينا: إن هذا التشـريع الدولـى العام في الإسـلام صفحة فخار؛ تشـهد له بحرصه على إيجاد علاقات طيبة مع البشـر قاطبة، لأنه دين إنسانى خالد..!

ملحـــــــق
عن الإيمان والإلحاد(١)

(١) وهو شرح العلامة الدكتور دراز للحديث الذي رواه أبو هريرة ـ رضى الله عنه ـ : «إن ناسا من أصحاب رسول الله ﷺ سألوه: «إنا لنجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به.. قال: أوقد وجدتموه؟» قالوا: «نعم» قال: «ذاك صريح الإيمان».. (المختار من كنوز السنة النبوية: شرح أربعين حديثًا في أصول الدين) ص٤٩١ ـ ٥١٤ ـ طبعة دار القلم ـ القاهرة والكويت سنة ١٤٣٠هـ سنة ٢٠٠٩م.

، عــن أبى هريــرة رضى الله عنه : أن ناسًــا من أصحاب رســول الله ﷺ ســألوه : »إنا نجد في أنفســنا مــا يتعاظم أحدنا أن يتكلم به» . قال : «أوَقَدْ وجدتموه ؟ قالوا : نعم ، قال : «ذاك صريح الإِيمان» – أخرجه مسلمٌ وأبو داود[٢] .

عن أبى هريرة – رضى الله عنه – :

«إنا نجد في أنفسنا» : من الخواطر والأحاديث الشيطانية في أمر الدين .

«مــا يتعاظــم أحدنا أن يتكلــم به» : هذا لفظ «مســلم» ، والرواية فيه برفع : «أحدنا» ويجوز نصبه ، وهما لغتان كما في «اللسان» .

تقــول : «تعاظمنــى الأمــر» أي : هالنــى وعَظُــمَ علــيَّ ، و«تعاظمتهُ» أي : «اســتعظمته وأنكرتــه» ، ولفظ «أبى داود» : «مــا نُعْظِــمُ أن نتكلم به» من الإِعظام بمعنى الاســتعظام ، أي : نَعُدُّ التكلم به ذنبًا عظيمًا ، فننزهُ عنه ألسنتنا لقبحه وشناعته .

لم يجرؤ أحدٌ من الصحابة – رضى الله عنهم – أن يُصرح بأعيــان تلك الخواطر التى اعترتهم ، حتى بلغت بهم شــدة

---

(٢) جامع الأصول: ٢٤٣/١ ــ الكتاب الأول ــ في الإيمان والإسلام ــ الفصل الثاني: في المجاز ــ الحديث رقم: «٣٣».
و«تيسير الوصول: ٢٠/١».
وفي «صحيح مسلم ١١٩/١: (١) ــ : كتاب الإيمان ــ (٦٠) ــ : باب بيان الوسوسة في الإيمان ــ الحديث رقم : (٢٠٩).
و«سنن أبى داود: ٦٢٣/٢ ــ كتاب السنة ــ باب في رد الوسوسة».

الحــذر من ذلك مبلغًا يفســره لنا حديث «ابــن عباسٍ» عند «أبى داود» قال: «جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال: «يا رسـول الله إن أحدنا ليجد في نفسه يعرضُ بالشيء لأن يكون حُمَمَةً أحب إليه من أن يتكلم به» الْحُمَمَةُ - بضمٍّ ففتح -: واحدة الْحُمَــم وهو الفحمُ وكل ما احترق مــن النار، والضمير في «لأن يكَون» للأحد، واللام فيه للابتداء أو القسم أي: والله! لأن يحتــرق أحدنــا حتى يصير فحمًا أحــب إليه من التكلم بذلك الشيء الذي يجده في نفسه، فضلًا عن الاعتقاد به.

لكن النبــي ﷺ وقد بُعث ليُعلم الناس كل ما يعنيهم من أمر دينهم لم يجد حرجًا أن يذكر لنا بصريح العبارة مثالًا مما يجــده الناسُ في صدورهم، فقال ﷺ فيما رواه «الشــيخان» عن «أبى هريرة»: «يأتى الشــيطان أحدكم فيقول: من خَلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق ربك».

وفــي رواية لهمــا «لا يزال الناس يتســاءلون حتى يقال: هــذا الله خلق الخلــق، فمن خلق الله؟».. ويقــاس على هذا الخاطر ما أشــبهه مــن الهواجس في أمر الــذات والصفات الإلهية وسائر الأمور الاعتقادية.

قال ﷺ: «أوَ قد وجدتموه؟» اســتفهامٌ تقريري، والواو عاطفــةٌ على مُســتفهم عنــه محذوفٍ، أي: «أقــد كان ذلك الوســواس؟ وقــد وجدتم منه فــي صدوركم هــذا الانقباض والاشــمئزاز؟ يُشــير ﷺ إلى أنه كان مــن المتوقع حدوث

الوساوس للمؤمنين على هذا الوجه وهو أنها لم تكن لتنشرح لها صدورهم، أو لتزيغ بها قلوبهم، ومنشأ هذه الإشارة تعبيره بكلمة: «قد» التى يُجاء بها في الكلام لتحقيق أمرٍ يُنتظرُ وقوعه. تقول: «جاء فلان» إذا كان السامعُ خالِي الذهن من مجيئه وعدمه، فإذا كان مُتشوفًا لخبر مجيئه، مُتوقعًا له قلت: «قد جاء فلان».

قالوا «نعم يا رسول الله! قد وجدناه وأنكرناه».

قال ﷺ: «ذاك صريح الإيمان»: ها هنا مرجعان لاسم الإشارة بحسب اللفظ فإن كان المشار إليه هو إنكارٍ هذه الخواطر واستعظامها والخوف من النطق بها فضلاً عن اعتقادها فلا شُبهة في أن ذلك من علامات صحة الإيمان، وخلوصه من شوائب الشكوك والأوهام. رغم التشكيك الذي يُلقيه الشيطان. أما إن كان المشار إليه هو حدوث تلك الوساوس كما هو ظاهر حديث «مُسلم» عن «ابن مسعود» قال: «سئل رسول الله ﷺ عن الوسوسة، فقال: «تلك محض الإيمان»[3].. فربما عُد من المشكل المحتاج إلى بيانٍ، إذ كيف تكون الوسوسة محض الإيمان أو علامة محض الإيمان؟

وبيانه يتوقف على مقدمة يُعرف بها أنواع الوجدانات السيئة التى تعترى المرء في المسائل الاعتقادية، وعلى أي نوعٍ منها يقع اسم الوسوسة المذكورة في الحديث.

---

(٣) «صحيح مسلم: ١١٩/١ ــ (١) ــ: كتاب الإيمان ــ (٦٠) ــ: باب: بيان الوسوسة في الإيمان ــ الحديث رقم: ٢١١».

والقول في ذلك أن هذه الوجدانات على ضربين:

(أحدهما): ضارٌ، بل خطرٌ، يهدم بُنيان الإيمان. وهو ما كان إيحاءً بشبهةٍ مُعينةٍ تُوجب ريبةً في أصلٍ من أصول الدين ولم تجد النفس حلاً لتلك الشبهة بل وجدت من العقل تأمينًا عليها. ومن القلب ركونًا إليها فاسترسلت على النفس واستقرت فيها، فهذا الضرب لا نُسميه وسوسةً بل إن نُسب إلى مصدره وفاعله سُمي إغواءً وتضليلاً. وإن نُسب إلى مورده وقائله سُمي غيًا وضلالاً وذلك هو سلطانُ «الشيطان» الذي يقول الله تعالى فيه:

﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ (النحل: ٩٩ ـ ١٠٠)

(الثاني): وهو المسمى بالوسوسة أو حديث[٤] النفس، هو ما لم تجتمع فيه تلك الصفات بل تجرد منها كلاً أو بعضًا. فمخالفته للضرب الأول على صور ثلاث:

الصورة الأولي: أن يخالفه في أصل موضوعه ويفترق عنه من أول الطريق. وذلك إذا لم يتعلق بالأصول، بل بما حولها

---

(٤) من إضافة المصدر لفاعله إذا كان من داخل النفس: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ «سورة ق:١٦».
أو لمفعوله إذا جاء إليها من الخارج بإلقاء «الوسواس الخناس، الذي يوسوس في صدور الناس». «سورة الناس: ٤ - ٥».

من التفاصيل التى لا يدعو إلى البحث عنها إلا شهوة الاطلاع علـى المجهولات ولو لم تكن في متنـاول العقول، ككيفية وجـود واجب الوجـود المشـار إليها في الحديث بالسـؤال عمـن خلـق الله، إذ متى عُلم أنـه تعالى خالقُ كل شـيءٍ وأن كل شـيءٍ مخلوقٌ لله لم يمكن أن يكون شيءٌ منها خالقًا له، فالسـؤال عمن خلقـهُ إن أُخذ على ظاهـره كان متناقضًا ولم يدخل على النفس منه شبهةٌ في هذا الأصل. أما إن كان سؤال دهشةٍ واستغرابٍ وتطلعٍ إلى تحديد هذه الحقيقة وإخضاعها للتصور: كيف وُجِدَ بغيرِ مُوجدٍ؟ وكيف وُجِدَ من غير أولٍ؟ كما يُسألُ عن سر فعل الكهرباء كيف تُضيء بغير نارٍ وكيف تُحـرك بغيـر بُخارٍ؟ فقد خرج الأمر عن الإنكار والشـك إلى البحـث عن الأسـرار المحجوبة التى يعجزُ عـن الإحاطة بها أهل السـماء والأرض إذ لا يمكن للمحاط أن يُحيط بمحيطهِ ولا للمحدود أن يسع أكثر من حدوده.

الصـورة الثانيـة: أن يوافقه في الخطـوة الأولى ويفارقه عند الخطوة التى تليهـا وذلك إذا تعلق بالأصول ولكنه لم يكن وحيًا بشـبهةٍ محدودةٍ ولا طعنًا في دليلٍ معينٍ، بل مع وضوح الأدلة وسـلامة مقدماتها ومساعدة الفطرة السليمة لها وبلوغ الإيمان بنتائجهـا في بعض الأحيان مبلغًا يقربُ من العلم الضرورى الذي يُحسهُ الوجدان إحساسهُ بالمحبة والبغـض والرضى والغضب، مع هذا كله قد تسـمع النفس

فـي فتـرات غفلتها هاتفًـا من شـياطينِ المـادة يهتف بها مُشـككًا لها في أساس إيمانها، تشـكيكًا لا يعتمد قوانين المناظـرة، بل هـو من قبيل منع القضايـا المبرهنة من غير خدشٍ لأدلتها لا بالإجمال ولا بالتفصيل.

مثال ذلك أن يجيء «الشـيطان» إلى الإنسان في صلاته أو دعائه وهو ذاهلٌ، فيدخل عليه تحت ستار النصيحة المموهة قائلاً له: «ما بالك تُحرك لسـانك بما لا تعي؟ أحضر قلبك، وقـدر موقفك، واعبد الله كأنـك تراه» فإذا اتفق ذات مرةٍ أنه حـاول هذا الاسـتحضار فلم يجد من فوره حـلاوة المناجاة، ولم تُسـعفه بديهته بتفهم كلمات الله كلمةً كلمةً، والتحقق بمعانيهـا في الوصف والثناء والرغبـة والرهبة وغيرها وجد «الشـيطان» إليه منفذًا آخر، يقول لـه: «ما بك؟ أمؤمنٌ أنت حقًـا؟ أيـن هذا الإيمان وأنت ذا تتلمسـهُ فـلا تجده؟ لعلك مخدوعٌ عن نفسك، وما أنت إلا مُقلدٌ سمعت الناس يقولون قولاً فقلت كما يقولون بغير برهانٍ، أو مُستدلٌ أخذت بالظن واليقين وحسـبت نفسـك آخـذًا بالعلـم واليقيـن»، وربما اسـتطرد معه قائلاً: «بل هـو ذاك. وإلا فنبئنى أين هذا الذي تُكلمـه؟ هل ترى أحـدًا قريبًا منك فتناجيـه. أو بعيدًا عنك فتناديـه، أم هو الخيـال يُصورُ لك حاضرًا مـا ليس بحاضرٍ، ويجعلك تهذى في خلوتك كالذي يُكلم نفسـه؟ وهل تلك الأدلة العقلية التى يُقيمها الناس كافيةً في إثبات ذلك الشيء

الذي تُخاطبهُ، إثباتًا لا يحتملُ النقيض كالإِثبات بالمشاهدة أليس من المحتمل ولو على وجهٍ بعيدٍ أن تكونوا واهمين في هذا الاستنتاج، ككثيرٍ من الاستنتاجات العقلية التى يعرض لها الخطأ؟». . وهكذاً ينتقل به من التحريض على الإِحسان إلى التشكيك في الإِيمان ثم من التشكيك في الإِيمان إلى التشكيك في «المؤمن به» وهو في كلا التشكيكين يعتمد إلى مغالطة مكشوفة.

أما تشكيكه له في أنه مؤمنٌ فمبنيٌ على أن «عدم الوجدان دليلٌ على عدم الوجود» وهي مغالطة قد تجوزُ على الغافل، كما أن المصاب ببعض الأمراض قد يتهم نفسه حين يغيب عنه من شاهده باحتمال الغلط في مشاهدته، فيقول: لعل ذلك كان من تخييلات الأوهام.

وكذلك المؤمن بالأمور الغيبية إذا أصيب بمرض الغفلة فَكَمَنَ إيمانه في حوافظ نفسه وتراكمت عليه أطباق النسيان خُيل إليه في أول تنبهه أنه لا يجد إيمانه وأنه نزل من اليقين إلى الظن، وقد يزداد تسلطُ هذا الخيال على نفسه إذا كان عميق الغفلة أسيرًا لظواهر الحس، لا يرى أبعد من جدار القبلة، ولا يُحس أكثر من شبح جسمه وصدى صوته، فكان من أجل ذلك كلما حاول أن ينفذ ببصيرته إلى بواطن الأمور ويتذوق تلك الحقائق العليا وجد شيئًا من الصعوبة، كأنما يتناوشها من مكانٍ بعيدٍ أو يستقيها من بئرٍ عميقة الغور. فإذا

لم يجد ما يطلب من المشاهدة القلبية والإحساس الروحانى وقف الشيطان يضحك منه قائلاً: «لقد صدَّقْتَ ظنى فيك فلولا أنك في شكٍّ من دينك لوجدت نفسك بعد هذه المحاولة في حضور ومشاهدة».. فيزداد توهمًا أنه قد سُلب إيمانه، وليس كذلك، وإنما هو عدم الحضور لا عدم الحصول، ونقصُ الزيادة لا نقص الأصل، وآية ذلك أنه لو أخذ يتحسسُ يقينهُ ويراجع براهينه ويجترها رويدًا رويدًا ليتذوقها، لوجد عقدة إيمانه وثيقةً، ولاستبان له بعد الرجوع إلى صوابه أنه لم يكن من الشك في شيءٍ، ولكنه التشكيك جعله ينشد ضالةً هو يحملها في طيات نفسه.. ولعل مما يُرَفِّهُ عن قلب المؤمن في هذا المقام أن نضرب له مثلاً يعرف به سر هذا الاختلاف الذي يجده بين حالى قوته وضعفه، ليدرك أنه ليس راجعًا إلى اختلاف اليقين والظن بل راجعٌ إلى تفاوت طبيعة الإيمان بالغيب في نفسها وفرق ما بينها وبين الإيمان بالشهادة: ذلك أن الحقائق الغيبية مع كونها مشرقةً بالبرهان هي دائمًا محجوبةٌ عن العيان. فكانت كالسهل الممتنع أو بعبارة أخرى كالقمر لا يخلو أحد وجهيه عن الضوء ألبتة، ولكنه تارةً يستقبلك بوجهه المضيء وتارةً يستدبرك به فكذلك نحن كلما شُغلت حواسنا بظواهر الدنيا لم نُشاهد نور الإيمان، وكلما طالعت قلوبنا آيات الله أشرق علينا نور تلك الحقيقة وليس في طاقتنا مادمنا مؤمنين بالغيب أن نكون في شهودٍ دائمٍ، كما ليس في

طاقتنا أن نجعل القمر مُشرقًا أبدًا كالشمس، أو نجعل الشمس طالعـةً ليلًا ونهارًا.. وبالجملة فطبيعة الإيمان بالغيب تأبى أن تكون كالإيمان بالشهادة، إذ:

﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ (الرحمن: ٢٠)

نعـم إن المـدى بينهما قـد يقصر جـدًا حتـى ليكادان يلتقيـان لكـن دوام هذه الحـال من المحال، لأن الإنسـان معجونٌ بطينة النسيان.

وأما استطراده إلى التشـكيك في أصل الأصول وحقيقة الحقائـق وهي وجـود المعبود، بناءً علـى أن «كل ما لم يقع تحت الحس بطريق مباشر جاز أن يكون وهمًا وخيالاً[٥] وإن قامت عليه البراهين».. فهي مغالطةٌ أشـد تهافتًا مما قبلها، إذ لا يقبل عاقلٌ أن يُقال عنه إن علمهُ لا يُجاوز حدود سـمعه وبصره وشـمه وذوقه ولمسه، ففيم إذًا ينتفع بعقله؟ وكيف يؤمن بالحساب والمنطق وسائر العلوم العقلية أم كيف يؤمن «بالجغرافيـا» والتاريـخ فيما لم يشـهده من الأقطـار النائية والأمـم الخالية؟ مـع أنه لابد في الإيمـان بالأخبار المتواترة

---

(٥) هذه الفكرة الشيطانية إن عرضت للمؤمن فإنما تمر بقلبه مر الخواطر الوقتية. كغيرها من الوساوس. ولكننا سنعالجها كما تُعالج الشبهات الحقيقية، لأنها هي كذلك في بعض النفوس، ولقد عظمت بها فتنة الملاحدة في هذا العصر فأضلوا بها كثيراً وضلوا عن سواء السبيل، فلا تملوا إذا طال الكلام في تفنيدها.

مـن تصرفٍ عقلي وهو الجزم باسـتحالة تواطؤ الناقلين على الكـذب. بل كيف يؤمن بعداوة العدو وصداقة الصديق وهو لم يشـق عن قلبه وكيف يعرف عقـل العاقل وجهل الجاهل وهـو لم يطلع على تضاريس مُخـه؟ وكيف يقول إنه رأي يد فـلان إذا كانت مسـتورةً في قفازها، وكيـف يؤمن بحياة من يكلمـه مـن وراء جدارٍ وهـو لا يرى شـخصه؟ وكيف يؤمن بالكهربـاء وهو لا يـرى إلا آثارها بل كيـف يؤمن بحياة من يُشاهده وبقدرته وعلمه وهو لا يرى إلا مظاهر تلك القوي؟

ولماذا يسـتعد للقاء الجيوش قبل قدومها ولترميم الدار قبل سقوطها ولتوقى الأمراض قبل هجومها؟ فإن كان يؤمن بهـذا كله ثـم يزعم أنه لا يؤمـن إلا بما يراه ويلمسـه فهو متناقـضٌ في دعـواه، وإن كان لا يؤمن بشـيءٍ من ذلك فقد شهد على نفسه بالنـزول إلى رتبة الحيوان الأعجم، بل إلى أدنـى منه رتبـة، فإن الحيوان بعقله الغريـزي أو الوراثى قد يؤمـن بما لا يراه، اسـتدلالًا بما يري. فالفـأر يدرك عداوة الهـر، والشـاةُ تعرف عـداوة الذئـب، والكلـب يفهم من إحسـان صاحبـه إليـه معنى العطـف والرحمـة، فيتعلق به ويكافئهُ بالوفاء والأمانة.

ولـو أن الخطـأ في بعـض الاسـتنتاجات العقليـة لفقدها شرائط النظر الصحيح يوجب التشكيك في كل حكم عقليٍّ لجـاز مثلـه في العلوم الحسـية أيضًا لوجـود الغلط فيً بعض

الحس، كراكب المركب السريع يرى الأشجار والمنازل تدور حوله، فمن وسعه لذلك أن يتشكك في حسه وعقله معًا فقد خرج إلى الجهل المطلق بل الجنون المطبق. ومثل هذا لا يستحى أحدٌ أن يصفعه، وليس له أن يغضب ممن يصفعهُ إذ لعله خدعه حسهُ وخانه وهمهُ على أنه إن ساغ التشكيك بمثل ذلك في بعض[٦] النظريات العلمية، فكيف يسوغ في الاستدلال بالآثار الحسية على وجود مصدرٍ لها، وبعظمة تلك الآثار على قدرة ذلك المصدر، وباختلافها على اختياره

---

(٦) هنالك نظريات علمية قابلة للتغيير والتبديل، كبعض نظريات الطب والفلك والطبيعة والكيمياء ففي مثلها يسوغ الوقوف عند كل خاطرٍ مُشككٍ يقال فيه أصوابٌ هي أم خطأ بل يحسن إفساح الصدر لكل بحث يُطلب به استفتاء العقل فيها من جديد. فعسى أن ينقض البحث فيها اليوم ما أبرم منها بالأمس وأن يهدم الغد ما بناه اليوم. لكن هناك إلى جانب هذه النظريات نظرياتٌ أخرى لا تتغير ولا تتبدل كنظريات الحساب والهندسة والمنطق. فهل يقبل عاقلٌ أن يسمع تشكيكاً في قاعدة التناسب، أو قاعدة زوايا المثلث، أو قاعدة التناقض والعكس؟ ثم ها هنا أولياتٌ، وها هنا نظريات قريبةٌ من الأوليات هي أحق بألا تُصغى أذن القلب إلى خاطرٍ يُشكك فيها، لأنها قد استجابت لها العقول بفطرتها، وهي مغروزةٌ في سِنْخِهَا وقرارتها. فلا يمكن أن ينظر عاقلٌ في مرآة نفسه إلا وجدها، ولا تصدق دعوى عاقلٍ أنه بحثها فلم يهتد إلى الصواب فيها لأنه لا يمنع من إدراكها إلا الإغماض عنها، ومتى توجهت إليها النفس بإخلاص وهُديت إليها بالآيات الساطعة وجب أن تُعد أموراً مفروغاً منها، وأن يُعد كل تشكيك فيها داحضاً بنفسه. ذلك مثل الحقيقة الإلهية: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ «الشورى:١٦».

وبائتلافها على وحدته، وبدقة نظامها على سعة علمه؟
إن هذا النوع من الاستدلال ليس مركوزًا في فطرة الإنسان وحده، بل في فطرة الحيوان كله، حتى إن البهيمة لتسمعُ الصوت فتذعر منه علمًا بأن له مصدرًا وأن وراءه سببًا مؤثرًا.

الحق أن هذه الشبهة إن شوشت لحظةً فإنما تُشوش على من لم يرجع إلى نفسه في تحقيق عقائده وإنما استمدها من تلك الأدلة التي صنعها المتكلمون لفئة خاصةٍ وهي فئة الحكماء والفلاسفة، إجابةً لشهوة عقولها ودعاءً لها بالنوع الذي تألفه من الحكمة. فلما أطالوا فيها النُّجْعَةَ وتكلفوا المقدمات المركبة والبحوث المقعدة صوروا المسألة بصورة النظريات العويصة القابلة للأخذ والرد وهي من أقرب الضروريات إلى الحس والفطرة كما ذكرنا، لذلك عرفها «العرب» في أشد جاهليتهم، وأدركها أهل الأديان على اختلاف مللهم ونحلهم، بل الماديون في قرارة أنفسهم جازمون بأمثالها ولكن غفلتهم لما استحكمت وشهواتهم العاجلة لما استحوذت شُغلت أنظارهم بالحظوظ الدنيا وصرفتها عن الحقائق العليا حتى بَعُدَ الفهم بها وصار ضروريها مُحتاجًا إلى التنبيه[٧] إليه كما يحتاج النظرى إلى الاستدلال عليه.

أما من كان يأوى في عقائده إلى ركنٍ شديدٍ من مشاهداته وتأملاته الشخصية في آيات الله فإنه لاً يلبث إذا سمع ذلك

---

(٧) من هنا سمى القرآن ذكراً، وسميت الآيات تذكرةً، والأنبياء مُذكِّرين والاهتداء تَذكُّراً.

الصــوت المزعج الذي ينعق به الشــيطان بين جوانحه، أن يجــد من يقظة روحه وصفاء إحساســه مذبــةً يطرد بها عن نفســه ذلك التشــويش، بل لا يلبث أن يســمع من ضميره مناديًا ينادي قائلاً:

«أتســأل أين هــذا الذي أناجيه! إنه ليس شــيئًا يُســتقبل بالأبــدان أو يُتمثــل في عــرض الجدران، فأفــرح إن تعلق به خيالي كأنه ماثلٌ أمامي حاضرٌ محدودٌ، أو أحزنُ إن لم أُحس بــه كأنــه غائبٌ مفقــودٌ كلا، لا شــأن لي بهذا الــذي يغيب ويحضر، فما ذاك إلا الأخيلة والأوهام، وإنما أناجي حاضرًا لا يغيبُ، لكن شأنه في حضوره عجيبٌ! فهو ليس بالقريب الــذي ينحصر فيُحَــدُّ، ولا بالبعيد الذي يُفتــشُ عنه فيُفتَقَدُ وهــو مع ذلك قريبٌ جدًا بســلطانه، بعيدٌ جدًا بعلو شــأنه. هل أُطلعك عليه؟ إنه لا يُدركه الطرف، هل أصفُهُ لك؟ إنه لا يكشف عنه الوصف. هل أُمَثِّلُهُ لك؟ إنه لا يُتخَيلُ بذاته، غير أنه بقدر عظمة مُلكــه تتمثلُ عظمة صفاته، فيتصور مُحيطًا بكل شيءٍ ولا يُحيطُ به شيءٌ، وأخيرًا هل أدلك عليه؟

«انظر معي ألست ترى هنالك يدًا تعمل من وراء الأيدي كلهــا، لا يخرج شــيءٌ عــن ســلطانها، ولا يملــك أحدٌ رد قضائهــا، ولا مُضاهــاة عملهــا، ألا ترى تلك اليــد؟ أما أنا فــأكاد أراهــا من وراء ســترٍ رقيــقٍ كلما أطللت مــن غرفتي وألقيــت نظري بعيدًا عن عملِ الإِنســان. فإذا ما عدت إلى عمل الإِنسان كدت أراها أيضًا لكن في قفاز الإِنسان».

«نعـم ها هـي ذى تُحـركُ العالم كلـه من حولنـا : ترفعُ وتخفض، وتبسـطُ وتقبضُ، وتُعزُ وتُذلُ، وتنصر وتخذلُ، وإن كان أكثـر الناس بها لا يشـعرون أما هنالك فإنها باديةٌ كأنها ليس دونها حجابٌ أترى أين؟ في أفق السماء والأرض في الليل إذا سجا، وفي النهار إذا تجلي، وفي النجم الطالع إذا هوى أو أفل، وفي الشـهاب الثاقب كلما خبا أو اشتعل. ألـم ترها بَعدُ؟ أفلا تراها في الرعد إذا قصف وفي البرق إذا خطف، وفي القمر إذا خسـف، وفي الشـمس إذا كسفت، وفي الريح إذا عصفت، وفي النسـيم إذا سري، وفي البحر إذا جـري، ألا تراهـا فـي الحـي يخـرج منه الميـتُ، وفي الميـت يخـرج منه الحي، وفـي ذلك المـاء المهين يصير إلـى رجلٍ عظيـم. وفي هذا الرجل العظيـم يصير خبرًا بعد عينٍ، ألاً تراها في تلك الجيوش الجرارة من أسراب الطير، وحيوان البحر، وأمم الوحوش، والحشرات، والهوام، وفي الجراثيم السـابحة في المـاء والهواء والأجسـام! إلى غير ذلك مـن العوالم الظاهرة والخفية التى لا يعلمُ أحدٌ منا أين مسـراها ومأواها، ولا يفهـم لغتها ولا يُدبـر رزقها وأجلها ونظـام عملهـا، ألا تراها فيما يقع للأنبيـاء من المعجزات الخارقة وفيما تشاهده الأرواح من الرؤى الصادقة وفي خطأ الحاسـبين، وكذب المنجمين، وعجـز المتطببين، ثم في عجـز أهل السـموات والأرض أن يخلقوا ذبابًا ولو اجتمعوا

له ﴿وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ﴾ «الحج : ٧٣»

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ
تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ الوَاحِدُ[8]

«بل مالى أُشير إليه بعيدًا عنى وهو منى قريبٌ، بل أقرب إليَّ من حبل الوريد، هذه يده أكاد أُحسها آخذةً بناصيتي، مُصرِّفَةً لسمعي وبصري، مُقلبةً لحركات قلبى وخطرات نفسي، مُدبرةً غذاء روحى وجسمي، من مفرق رأسى إلى أخمص قدمي، ومن أطراف شعري وغضون جلدي، إلى أعماق عظمى ومخى وعصبي، كل ذرة منه يجري إليها رزقها المقسوم ونصيبها المعلوم من حيث لا أريد ولا أشعر. يُمسكُ نفسى حين يشاء، وما يُمسكُ فلا مرسل له، ويرسلها حين يشاء وما يرسل فلا ممسك له، أعزمُ العزيمة فيفصمها، وربما أُحلها فيبرمها، أعرف الشيء ثم أُنكرهُ وقد أُنكرهُ ثم أعرفه. أحب الشيء ثم أكرهه وتارةً أكرهه ثم أحبه فذلك الشيء الذي يملك منى ما لا أملكُ، ولا أملك شيئًا مما يملك، إليه أوجه قلبى وأفوض أمرى وبه أستعين في حاجتي، ولا أعبدُ إلا إياه، ولا أُعطى من نفسى المذلة إلا له :

---

(٨) «ديوان أبى العتاهية: ١٠٤»

﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطۡعِمُنِى وَيَسۡقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحۡيِينِ﴾

«الشعراء: ٧٨ ـ ٨١»

«وبعدُ، فما ظنك في تلك القدرة التى فوق الْقَدْرِ؟ هل عسيت أن تقول إنها قوةٌ قاهرةٌ حقًا، ولكنها ليست شيئًا وراء قوة الطبيعة المادية؟ أتظن ذلك؟ ناشدتك! نبئنى ماذا تفهم من كلمة: «الطبيعة» فإنى لست أفهم منها إلا مجموعة تلك الخصائص والسنن التى تجرى عليها المادة في وجودها، وهذه الخصائص وإن صلحت مبدأً لآثارها لا تصلح أن تكون هي المبدأ الأول للكائنات كلها حتى المادة التى تقوم هي بها، لأن منزلتها من المادة منزلة الصفة من موصوفها، ولن تكون صفة الشيء اللاحقة به المستندة إليه مبدأ له إلا لو كان ثوبك الذي تلبسهُ أو شكلك الذي أنت عليه سببًا في وجودك، فإن ما لا قيام له إلا به؟ كيف يُقَوِّمُ غيره بل كيف يُقَوِّمُ ما هو محتاجٌ إليه ولا قيام له هو بنفسه؟ فهذه السنن الكونية إذًا مفعولةٌ مجعولةٌ لا فاعلةٌ مسيطرةٌ.

«ولكن لعلك تعني شيئًا آخر، تريد أن تقول: إن ذات المادة وماهيتها اقتضت وجودها، واقتضت أن يكون وجودها على هذا النحو المشاهد إذًا لكانت المادة بأوضاعها واجبة الوجود لذاتها، مُستحيلة العدم لذاتها،

فياليـت شـعري أي محـالٍ عقلـيٍّ كان يقـع لـو لـم توجد السـموات والأرض ومـن فيهن، أو لو وجـدت على أوضاعٍ غير مـا هي عليـه؟ أكان يجتمع النقيضـان، أم كان يكونُ الشيء غير نفسه، أم عين غيره، أم ماذا؟».

«ثـم لو كان وجودها مُقتضى ذاتها لكانت شـيئًا واحدًا مُتشـابهًا، لأن الذات الواحدة السـاذجة لا تقتضى الأضداد والنقائـض. فمـا بالنا نـرى طبيعة كل جنـسٍ منها تخالف طبائع سـائر الأجنـاس، وطبيعة النوع مـن الجنس تُخالف طبائع باقى الأنواع، بل لكل فردٍ ولكل عضوٍ وظيفةٌ طبيعيةٌ يؤديهـا غير وظيفة العضو الآخر؟ فالمـاء لا يُحرقُ، والنار لا تُطفـئ، والحمارُ لا يُغـرد، والعصفور لا ينهقُ، والأذن لا تُبصر، والعين لا تسـمعُ، والإنسـان لا يولد ماشيًا مستقلًا بنفسـه، وفـرخ الدجاجـة يخرج مسـتقلًا عن أمـه، وفرخ الحمامة لا يستغنى عنها إلا بعد مدةٍ:

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍۖ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ﴾

«النور: ٤٥»

وهكذا تختلف الكائنـات العلوية في أحجامها وألوانها وحركاتها ومداراتها اختلافًا كبيرًا.

فـإن ذهبت إلـى أن ماهية المادة أمرٌ مركـبٌ من عناصر متفاوتة، وأن كل عنصـرٍ منها يقتضى لذاته نظامًا خاصًا لا يخـرج عنه فقد أحلـت، لأن المركبات لا يكـون وجودها مقتضى ذاتها، إذ هي مسبوقةٌ بأجزائها المقومة لها، محتاجةٌ إلى كل جـزء منها لحصول هيئتها التركيبية، والمسـبوق بغيـره أو المحتاج لغيره لا يكـون وجوده مُقْتَضَى ذاته، بل لابـد لـه من علةٍ أخرى. ومع ذلك نسـأل: «لمـاذا لا تطرد الطبيعـة الواحـدة بالوراثة فيما تناسـل منها، بـل كثيرًا ما تتخلف. فالبصير يلد أعمي، والأعمى يلد بصيرًا، والجاهل يُنجبُ عالمًا، والذكى غبيًا، والتقى فاجرًا، والفاجر تقيًا». نقـول: «لماذا هذا التخلف وذاك الاختـلاف مع أن ما ثبت للشيء بذاته لا يمكن أن يتخلف ولا أن يختلف؟» بل لماذا نرى الطبيعة الواحدة في نفسها قد تنقلب رأسًا على عقب؟ فلقد حدثنا التاريخ الصادق بانقلاب الطين طيرًا على يدى «عيسـي»، وانقلاب العصا حيةً تسـعى على يد «موسـي»، والنار بردًا وسلامًا على «إبراهيم» - عليهم الصلاة والسلام - بـل حدثتنا المشـاهدة - وهي أقرب إقناعًـا للمجادل - بـأن دودة القز الزاحفة متى تُركت وشـأنها انقلبت فراشًـا يطير بجناحين، وهذه سنةٌ نراها فيها باطرادٍ. فأين مقتضى الطبيعة النوعية لو كان ما تقضى به واجبًا لذاتها؟!

«أما إذا نزلت عن دعـوى الوجوب الذاتى واعترفت بأن

المادة كان يُمكـن أن تُوجد ، وألا تُوجدَ وأنها حين وُجدت كان يمكن أن تُوجد على هذا النحو أو على غيره ، ثم قلت : «ولكنهـا هكذا وجدت مصادفـةً واتفاقًا وهكـذا اختلفت أنواعهـا مصادفةً واتفاقًا ، لأنها لمـا وجدت تحركت فأخذ كل جزءٍ منها شـكلاً ما ، وتبوأ مكانًـا ما ، مصادفةً واتفاقًا ، فاختلفت مظاهرها تبعًا لاختـلاف تلك البيئات والظروف التـي أحاطت بها ، وربما تغلـب بعضها على بعض مُصادفةً واتفاقًـا أيضًـا » ، فهـذا كلامٌ يحتمل معنيين أحدهما أشـد بطلانًا من الآخر :

فأمـا إن كان معنـاه أنهـا وُجدت وحدث فيهـا ما حدث هكـذا تَرَجُّحًا بغير مُرجـح[٩] وفعلاً بغير فاعل ولا سـبب أصـلًا ، فذلك ما تُنكـره قوَاعد[١٠] الماديين أنفسـهم ، بل تنبذه عقول الناس والبهائم :

﴿ أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴾

«الطور : ٣٥»

---

(٩) هناك فرقٌ بين الترجح بغير مُرجح والترجيح بغير مُرجح: فالأول هو أن يكون للشيء طرفان مُمكنان فيحصل أحدهما بغير موجد. والثانى أن يكون للشيء طرفان ممكنان فيوجد أحدهما بموجد لا يُبني عمله على حكمةٍ، بل على مجرد الاختيار والتحكم. والمحالُ عقلاً هو الأول أما الثانى فإنه يقع من غير العقلاء ومن العقلاء في بعض الأحوال.

(١٠) من القوانين الأساسية في علم الطبيعة والكيمياء هذا النص: «المادة لا تحدث من تلقاء أنفسها».

وأما إن كان معناه أنها حدثت وتنوعت بسببٍ إلا أن هذا السبب ليس قوةً ذات شعورٍ واختيارٍ وذات تدبيرٍ وحكمة، بل شيءٌ ما اتفق ترجيحهُ لجانبٍ من جوانب الإمكان، فهذا اعتراف في الجملة بوجود مؤثرٍ ليس من قِبَلِ ذات المادة وماهيتها بل هو أمرٌ خارجٌ عنها. وهذه خطوةٌ في طريق الحق فهل تزعم بعد ذلك أنني أنا وأنت وسائر هؤلاء الناس الأحياء المفكرين أثرٌ لشيءٍ مجردٍ عن الحياة والتفكير؟ يا للمنطق!

«إن لبعضِ الحيوان صنعة تقع على وجهٍ لا يختلف. كالنحل مثلًا تبني بيتها دائمًا على شكلٍ سداسي، والعنكبوت تنسج خيوطها مسطحاتٍ، ودودةً القز تُكفنُ نفسها في لفافةٍ من الحرير بيضية الشكل. فإذا قلنا إن أمثال هذه الصناعات نشأت عن غير اختيارٍ ورويةٍ من الحيوان صح لنا ذلك لأنها ضربٌ واحدٌ لا تفنن فيه».

«وأن من عمل الإنسان ما يقع على وجوهٍ مختلفةٍ، لكنها لا تعتمد في اختلافها شيئًا من المناسبة والحكمة، كما نقذفُ بأنقاض البناء إلى الأرض فيسقط كل حجرٍ منها على شقٍّ كيفما اتفق فإذا رأينا هذه الأحجار مختلفةً الأوضاع والأبعاد صح لنا أن نقول أيضًا: إن هذا الاختلاف جاء بمحض المصادفة عن غير قصدٍ ولا شعورٍ.

«لكن هل يقال مثل هذا في صنعة الصائغ يصنع السوار على قدر المعصم والخاتم بمقياس الإصبع، وهل يقال مثل

هــذا في بناء الأهــرام ونحوها من الصناعـات الفنية؟ كلا. فكذلـك الأمـر، بل أحـرى، في هـذا البنيان الفخـم الذي نســميه (الكون) فإنه يجمع إلى ما فيه من كثرة الاختلاف دقة الوضع وحُســن التنســيق والائتلاف، ففـي تنوع أجزاء بُنيانه آيةٌ على اختيار بانيه، لأنه صنع في سقفه ما لم يصنعه في أرضه، وجعل في أساســه ما ليس في جوانبه، وجعل فيه مُتعًا شــتي، وأسكن فيه أُممًا لا تُحصي، ثم في ائتلاف تلك الأجــزاء فيما بينها. ومناســبة كل جزءٍ منها لموضعه الذي وُضــع فيــه، ووفائه بالحاجة التى تُطلبُ منــه، آيةٌ على علم وحكمــةٍ، بل علــى لطفٍ وعنايــةٍ ورحمةٍ، ومــن درس علم الحيوان وعلم النبات وغيرهما من العلوم الكونية وقف من ذلك على ما يزيده بصيرةً»(١١).

(١١) وذلك مثلًا بالتأملُ في وجه التفاوت بين تركيب أصابع الإنسان وخُف البعير وحافر الفرس، والتفاوت بين منقار الطير وفم الإنسان وخُرطوم الفيل، وبين الأجهزة الهضمية والدموية والحواس في الإنسان والحيوان فللإنسان معدةٌ واحدةٌ، وللبعير ثلاثُ معدات، ولسائر الحيوان المُجتر أربع، وليس للدودة الوحيدة جهازٌ هضميٌ أصلاً. للإنسان والأنواع العليا من الحيوان قلبٌ كاملٌ، وللأسماك نصف قلبٍ «أُذينٌ وبُطينٌ» والأنواع الدنيا من= =الحيوان لا قلب لها. عين الإنسان ذات عدسة واحدة وعين البعوض والنمل ذات عدسات كثيرة جداً فبالتأمل في هذا وأمثاله نجد أن كل فصيلةٍ قد استوفت مطالبها التى يقتضيها مركزها في الوجود، فلا تنقصها آلةٌ يتطلبها أسلوب معيشتها وليس فيها آلةٌ تزيدُ عن حاجتها. بل كل شيءٍ بمقدار، وكل شيءٍ أخذ خلقه الذي يُناسبه.

«لا نستطيع أن نقول إن للبيئة وحدها أثرًا في هذا التكوين اتحادًا واختلافا، ففي البحر من مختلف صور الحيوان عجائب وعبرٌ، وفي الغابات من الأشجار الطبيعية العتيقة التي تضرب بعروقها في بقعةٍ واحدة وتُسقى بماءٍ واحد، وتتنفس في هواءٍ واحد، ضروبٌ مختلفاتٌ في الشكلِ والحجم واللون والطول والقصر، بل الشجرة الواحدة قد تُؤتي طعومًا مختلفةً من الثمر، والغصن الواحد يُخرج ألوانًا شتى من الزهر، كما أن الرحم الواحدة تُنتج الغرائز المتفاوتة والصور المتباينة من الولد، ولو كانا توأمين لكان بينهما اختلافٌ:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ﴾

«فاطر: ٢٧ ـ ٢٨»

فإذا أضفنا إلى الوسط الطبيعي شيئًا من الانتخاب الصناعي نجده قد يُجدى قليلًا في تهذيب أو تنويع بعض الفصائل الحيوانية أو النباتية ولكنه لا يُجدى في نقل شيءٍ منها عن حد محدودٍ، ونحن نرى الناس يُقلمون أظفارهم ويختنون أولادهم منذ آلاف السنين ولم يجئ يومٌ يستغنون فيه عن الختان وتقليم الأظفار».

إن كل ما نستفيده من النظر في البيئة وأسلوب المعيشة أن نفهم وجه حاجة المادة في تكوينها إلى جهازٍ ما، ووجه ملاءمة هذا الجهاز لحاجتها ولكن من ذا الذي يُعطيها سؤلها ويُجهزها بجهازها لو كان الذي تسأله لا يشعرُ بحاجتها، وكانت الأمور تجرى على غير هُدى يقودها تيار المصادفات بل هي نفسها لا تشعرُ بمستقبلها الذي ينتظرها حتى تطلب إبان تكوينها ما يُلائمه.

«على أنه لو كانت المصادفة هي التى ولدت هذا النظام البديع بغير قصدٍ فما الذي يُمسكهُ ويحفظهُ، وهو بَعْدُ عُرضةٌ في كل لحظةٍ لما لا يُحصى من المصادفات والمفاجآت؟ أليس لأن هناك عينًا تُراقبهُ ويدًا تُمسكهُ لولاها لزلزل واضطرب أو لزال وفسد؟

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ﴾

«فاطر: ٤١»

وأخيرًا لو أن الأمور تجرى على غير هدىً يقودها تيار المصادفات لما انكشفت أسرار مستقبلها البعيد لأحدٍ على وجهٍ صحيحٍ جازم، لأنه لا يدرى كم يحوطها من ظروفٍ مواتيةٍ أو معاكسةٍ، لكن الأنبياء قد كشفوا لنا عن طائفةٍ صالحةٍ من تلك الغيوب في أخبارٍ صادقةٍ مصدوقةٍ

فمن ذا الذي باح لهم بسرها إن لم يكن هو صانعها وقائدها الذي رسم مبادئها وغايتها وعلم منها ما كان وما يكون.

ذلك الله رب العالمين:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾

«الأعلى: ٢ و٣»

والذي ﴿يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾

«طه: ٧»

والذي يسمع النجوى، فما لى لا أُناجيه وهو يرانى وإن كنت لا أراه، ويذكرنى وإن كنت قد أغفلُ عنه وأنساه.

﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾

«إبراهيم: ١٠»

آمنت بالله.. آمنت بالله.

الفهرس